جامعة الدول العربية
معهد الدراسات العربية العالية

# محاضرات

## عن

# الشيخ عبد القادر المغربي

ألقاها

الدكتور

محمد أسعد طلس

[على طلبة قسم الدراسات الأدبية]

١٩٥٨

# محـــاضرات

# عن

# عبد القادر المغربى

# الفهرست

# مقدمة

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وجنده .

[ أما بعد ] فهذه محاضرات ألقيتها على طلابى فى معهد الدراسات العالية بالقاهرة للتعريف بالشيخ الإمام عبد القادر المغربى ، أحد قادة الإصلاح ، وزعماء الحركة الفكرية والأدبية ، فى نهضة أمتنا العربية ، الذى توفاه الله فى العام الماضى ، واحتفل العالم العربى والإسلامى بتكريمه احتفالا كبيراً ، اشتركت فيه الحكومات العربية ، والإسلامية ، والمحافل الأدبية والاجتماعية ، اشتراكاً دل على مكانة الفقيد وتقديرهم إيّاه ، بما بذل فى خدمة أمته ، وعمل على تتميم رسالة شيخه السيد المصلح جمال الدين الافغانى ، وصديقه الإمام الشيخ محمد عبده .

ومن حق أمتنا العربية ، فى هذه الفترة من تاريخنا الحديث أن تقف وقفة طويلة أمام سِيَرَ البررة من أبنائها الذين قضوا فى سبيلها ورفعة شأنها فى كافة الحقول العامة من سياسة وأدب واجتماع واقتصاد ، منذ القرن الماضى فى أيامنا هذه ، فإنهم البناة الأول لهذه الحركة التحررية التى نرجو لها أن تتم فى دنيا العرب ، وعوالم المشرق كله بحول الله وقوته .

إن على مبارك ، ورفاعة رافع الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، ومصطفى كامل ، وعلى يوسف ، وجمال الدين القاسمى ، وعبد الرحمن الكواكبى ، وعبد العزيز جاويش ، والأمير شكيب ارسلان ، وعبد القادر المغربى ، واخوان لهم كثيرين فى مضمار الفكر والعلم والاصلاح ، لهم دين كثير فى أعناق هذه الأمة العربية ، فيجب عليها أن توفيهم إيّاه ، وذلك بتعريف الأجيال الصاعدة الناشئة اليوم بما فعله أبناء الرعيل الأول بالأمس القريب والبعيد من جهد وكد فى سبيل النهضة العربية الحاضرة ، وإيقاد شعلتها ، والدفع بها تسير قدماً بخطى صحيحة متزنة ، وتنفض عن

عيونها ومن العصور الظالمة ، وآثار عهود الاستعمار الظالم البغيض بشتى ألوانه وأشكاله فى كافة أقطار القارتين الشقيقتين آسية وأفريقية .

وإن الجهود التى يقوم بها بعض الكتاب وقادة الفكر اليوم فى مصر وسائر البلاد العربية ، والأقطار الشرقية ، لتعريف الجيل الصاعد الواعى بأخبار الرعيل الأول من الجنود القدامى فى حملة محاربة الاستعمار ، والبعث القومى، لهى جهود مشكورة ، وطيبة ، ومفيدة . وإن الشيخ الإمام «المغربى» رحمه الله هو أحد أولئك الجنود الذين بذلوا حياتهم ، منذ نعومة أظفارهم إلى أن قضوا ، فى سبيل أمتهم ، متسهلين كل صعب من سجن ونفى وتعذيب وتشريد فى سبيل عقيدتهم الوطنية ، وأفكارهم الاصلاحية ، والعمل على القضاء على الاستعمار فى حقول السياسة والعلم والاقتصاد .

ومما هو جدير بالذكر أن الوعى العام قد تنبه فى القارتين الشقيقتين ، وان الناس بصورة عامة أخذوا يتتبعون أخبار الرعيل الأول من المجاهدين القدامى ، وينقبون عن آثارهم ويعملون على التعرف إليهم ، والإشادة بمآثرهم ، والسير على غرارهم ، وتتميم رسالتهم .

ولقد كان للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية وللمعاهد والمؤسسات العلمية المرتبطة بها أو بغيرها من المعاهد العالية الأخرى فى مصر وعواصم المشرق أثر بيِّن فى هذه الحلبة ، وإن جهود هذه المؤسسات فى الطلب إلى المؤلفين أن يكتبوا عن ذلك الرعيل ، وإلى الحاضرين أن يتحدثوا عنهم ، ويسهموا فى ذلك ، لهى جهود طيبة ومحمودة ، ويرجى لها أن تفيد .

[وبعد] فرحم الله «المغربى» (الأفريقى) الأرومة ، (الأسيوى) المنبت الذى قضى فى سبيل نهضة الشرق من أدناه إلى أقصاه ، وحقق لأمه أن تسير فى ركب الحضارة من جديد ، عاملة على تدعيم مواكب النور ، والحضارة ، والحرية ، والخير فى الأرض .

القاهرة ١٩٥٧/١٢/٢٩ محمد أسعد طلس

# عبد القادر المغربي

١٢٨٤ — ١٣٧٥هـ
١٨٦٧ — ١٩٥٦م

## عصره

أطل القرن الثالث عشر للهجرة مع نهاية القرن الثامن عشر للميلاد ، وكانت الإمبراطورية العثمانية هى المسيطرة على أكثر أرجاء العالم العربى ، وإن كانت هذه السيطرة روحية فى بعض اقاليه كشمالى إفريقية ، ومصر ، أما الجزيرة العربية والشام والعراق فكانت تحت النفوذ المطلق للامبراطورية ، كما كانت على حالة عجيبة من التفكك والتفسخ الداخلى والخارجى .

ولما حاول السلطان العثمانى سليم الثالث إصلاح الأمور وتنظيم الجيش ، والأخذ بطرائق الإصلاح الأوربية الحديثة بمعونة سفير نابليون الثالث لدى بلاطه الجنرال سباستيانى ( Sébastiani ) لم يمكنه الانكشاريون المرتزقة من القيام بتلك الحركة الاصلاحية ، وأكرهوه على أن يخلع نفسه ، وتمّ لهم ذلك فى سنة ١٨٠٧ م وفتكوا بجميع زعماء الاصلاح الذين كانوا يؤازرون ذلك السلطان فى حركته الاصلاحية ، وأجلسوا على العرش ابن عمه مصطفى الرابع الذى سار معهم كما يريدون ، وارجع الإمبراطورية إلى طرائق الرجعية ، والفساد ، وكذلك فعلوا مع خلفه السلطان محمود الثانى الذى أراد أن يخطو خطوة نحو الإصلاح فوقفوا فى وجهه فترة إلى أن تغلب عليهم ، وإصدر « فرماناً شاهانياً » فى سنة ١٨٢٦م أوجب به تأليف جيش نظامى حديث فى الإمبراطورية ، وفتك بعدد كبير من الانكشارية ، وقضى على سلطانهم قضاء مبيدا ، ولكن الدول الغربية الطامعة فى استعمار الإمبراطورية العثمانية لم تترك السلطان المصلح يتم خطواته الجريئة ؛ ففى سنة ١٨٢٧ م اتفقت الدول الثلاث الكبرى آنئذ وهى روسية وانكلترة وفرنسة ، فيما بينها ، على تجزئة أوصال الإمبراطورية وحطّمت أسطولها

فى معركة « ناڤارين » المشهورة ، ثم تتابعت المحن على الإمبراطورية المريضة فلم يتمكن السلطان محمود الثانى من إتمام اصلاحاته ، واستمرت الدولة تتخبط فى حالة الفوضى والجهل ، وكان لانفصال بعض أجزاء الإمبراطورية عنها أثر كبير فى إلهاب عواطف الأجزاء الأخرى وإثارة العواطف القومية عند أهلها ؛ فقد كان لانفصال اليونان عن جسم الإمبراطورية فى سنة ١٨٣٠ م بعد حرب فظيعة ذهب بسببها أكثر قطع الأسطول التركى والأسطول المصرى ، كما كان لانفصال المقاطعات الرومانية عن الإمبراطورية وإعلانها استقلالها فى ذلك الحين أثر بالغ فى إضعاف كيان الدولة وإثارة شعور القوميات غير التركية وفى طليعتها القومية العربية .

ويظهر أن الدولة العثمانية قد طاش صوابها فى ذلك الحين ، وأرادت التنفيس عن غمها الذى ران عليها من جرّاء تلك الضربات ، فسلكت إلى ذلك سبيلا بشعة مجرمة وهى الانتقام من النصارى الخاضعين لها وبخاصة نصارى الديار الشامية ، وكتبت حكومة الاستانة إلى ولاتها فى الشام تطلب إليهم أن ينتقموا ممن تحت أيديهم من النصارى ، وجمع والى دمشق التركى أعيان البلاد فى سنة ١٨٣١م وتلا عليهم الفرمان الشاهانى القاضى بقتل كبراء النصارى فى تلك البلاد - لتآمرهم على الدولة وإفسادهم مصالحها ، ولكن موقف أعيان المسلمين كان موقفا مشرفا إذ قالوا له ؛ ليس بين النصارى المقيمين بيننا مفسدون ، وإنما هم أهل ذمة وعهد ، لهم مالناوعليهم ماعلينا ،وإن الرسول محمد (صلعم) أوصى بهم خيراً ، فقال : - من آذى ذمياً كنت خصمه يوم القيامة ، ونحن لا نتحمل تبعة ظلمهم والفتك بهم . فأخذ الوالى العثمانى خطوطهم على ذلك وبعث بها إلى الباب العالى فى الآستانة .

ولعمرى إنه لموقف مشرف ، وإنه لدليل على أن الروح القومية السليمة كانت قويمة صحيحة فى الأمة العربية منذ آنذاك ، على الرغم من محاولة الدولة العثمانية تفكيكها ، فأيّة علاقة بين نصارى اليونان الثائرين على الدولة العثمانية ، وبين نصارى العرب العائشين فى الشام ، المحافظين على حقوق

المواطن الصالح !! ولكنه منطق الظلم والفوضى ، ولا شك فى أن هذا العمل كان بذرة من بذور الانبعاث القومى العربى ؛ فقد رأى العرب المسلمون فى هذه الديار فسادَ خطة الاتراك وسوء ادارتهم فتركزت فى نفوس الواعين منهم - على الأقل - فكرة التخلص من الظلم التركى ، وإنقاذ البلاد العربية الرازحة تحت عبئه من تلك الحالة الشاذة ؛ وكانت أولى الانتفاضات ثورة أهالى دمشق على واليهم التركى سليم باشافى سنة ١٢٤٧ هـ ؛ حين قدم إليهم من الباب العالى وأخذ يعاملهم بقسوة وعنف ، بعد ان قاسى منه أهل حلب قسوة وعنفاشديدين، وما أن وصل إلى دمشق حتى زاد الضرائب والمكوس ، واحتقر الوجوه والأعيان ، وضرب العامة فعزموا على الفتك به وبجنده ، وتجمهروا متظاهرين عليه ، ثم حصروه فى قصره وضيقوا عليه فاضطر إلى أن يلجأ إلى القلعة ، ثم أمر باحراق دار الحكومة ليشغل الناس عن محاصرته ويستطيع النجاة بنفسه ، فلم يأبهوا للحريق ، واضطر إلى أن يقذف عليهم نيران المدافع من القلعة فهلك عدد كبير منهم ، ثم لجأ هو إلى بين القاضى الشرعى فهاجم الناس البيت واحتلوه وقتلوا الوالى ، وألّفوا من بينهم حكومة محلية تدير شئون البلاد .

هكذا كانت حالة ولاية دمشق ، ولم تكن حالة سائر ولايات الشام أو غيره من اجزاء العالم العربى أحسن وضعاً ، ولذلك تداعى العقلاء وأهل الحكمة والوعى ، إلى العمل فى كافة الحقول المؤدية إلى إثارة القومية الصحيحة ، والإصلاح العام ، والتوجيه المستقيم ، لافى السياسة وحسب ، بل فى التعليم ، والأدب ، والاجتماع ، والإصلاح .

أما التعليم والأدب فقد كان أول المجالات التى ابتدأ فيها الإصلاح ؛ ففى القرن السابع عشر نبغ فى حلب المطران جرمانوس فرحات ( ١٦٧٠ - ١٧٣٢م ) العالم المصلح الذى رأى فساد اللغة العربية فعمل على إصلاحها والتأليف فيها ، وعرّب الإنجيل تعريباً صحيحاً مسجوعاً عرّف الكنيسة فصاحة لغة العرب ، ووضع معجما صغيراً سماه ( الإعراب عن لسان الأعراب )

وأوجد أول مجمع علمي لغوي فى حلب انتخب له نخبه من علماء حلب الدينيين والمدنيين الذين انصرفوا إلى الترجمة والنقل وكانوا يعرضون عليه نتاجهم فينقحه ، وأخذ يسعى فى جمع المخطوطات العربية ، وبذلك غدَت حلب فى عهده مركز الاشعاع الفكرى فى النهضة الحديثة ومنها انتقل إلى لبنان وسورية فظهر فيهما نفر من رجال الفكر أمثال :

الشيخ أحمد عبد اللطيف البربير ( ١٧٤٧ – ١٨١١ م ) وبطرس كرامة ( ١٧٧٤ – ١٨٥١ م ) وأمين الجندى ( ١٧٥٦ – ١٨٤٠ م ) والشيخ ناصيف اليازجي ( ١٨٠٠ – ١٨٧١ م ) والشيخ يوسف الأسير ( ١٨١٤ - ١٨٨٩م ) وأحمـــد فارس الشدياق ( ١٨٠٤ – ١٨٨٨ م ) وبطرس البستانى ( ١٨١٩ – ١٨٨٣م ) والشيخ إبراهيم الأحدب ( ١٨٢٦ – ١٨٩٠م ) والشيخ حسين الجسر ( ١٨٤٥ – ١٩٠٩ ) والشيخ حسين بيهم ( ١٨٣٣ – ١٨٨١ ) والشيخ طاهر الجزائرى ( ١٨٥٠ – ١٩١٩م ) والشيخ عمر الأنسى ( ١٨٢١ – ١٨٧٦ م ) ....

وليس ههنا مجال البحث التفصيلى فى التعليم والأدب .

وأما الاجتماع والإصلاح فقد نبغ أوائل القرن التاسع عشر نفر من المصلحين فى سورية ولبنان رأوا سوء الحالة الاجتماعية التى كان عليها قومهم فألـّفوا فى الإصلاح آثاراً كان لها وقعها ، وتأثيرها فى المجتمع العربى وهم :

أحمد فارس الشدياق ( ١٨٠٤ – ١٨٨٨ م ) فى مقالاته العديدة وكتبه الكثيرة وأجلـّها ( الفارياق ) و ( كشف المخبّأ ) و ( كنز الرغائب ) .

وفرنسيس المرّاش ( ١٨٢٦ – ١٨٧٣ م ) فى كتابيه ( مشهد الأحوال ) ( وغابة الحق ) .

وسليم بطرس البستانى ( ١٨٤٨ – ١٨٨٤م ) فى رواياته الإصلاحية ،

سواء التى ترجمها ، أو التى ألّفها ، أو فى مقالاته التى ملأ بها جداول مجلته ( الجنان ) .

وابراهيم اليازجى ( ١٨٤٧ — ١٩٠٦ م ) فى قصائده التوجيهية ، أو فى مقالاته القومية التى نشرها فى جريدة ( النجاح ) أو مجلة ( الضياء ) .

وعبد الرحمن الكواكبى ( ١٨٤٩ — ١٩٠٢م ) فى مقالاته الإصلاحية التى نشرها فى « جريدة الشهباء » وفى كتابيه المشهورين ( أم القرى ) ( وطبائع الاستبداد ) .

وأديب اسحق ( ١٨٥٦ — ١٨٨٥ م ) فى مقالاته التى نشرها فى « جريدة التقدم » أو رواياته الاجتماعية التى الفها أو ترجمها أو فى كتبه الاجتماعية .

وشبلى الشميّل ( ١٨٦٠ — ١٩١٦ م ) فى مقالاته التوجيهية ، الجدلية ، ومباحثه العلمية ، وبخاصة مباحث علم النشوء والارتقاء .

وفرح انطون ( ١٨٦١ — ١٩٢٢ م ) فى رواياته الاجتماعية التى ترجمها أو ألفها ، وفى مباحثه الفلسفية والاجتماعية التى نشرها .

ونجيب الحداد (١٨٦٧ — ١٨٩٩ م) فى رواياته الإصلاحية ومقالاته النقدية .

وعلامتنا وشيخنا دولة الاستاذ فارس الخورى مدّ الله فى عمره (١٨٧٧م) فى مقالاته وقصائده الإصلاحية ومباحثه السياسية والقانونية والاجتماعية .

هؤلاء هم أئمة الشاميين المصلحين فى القرن التاسع عشر .

أما الناحية السياسية القومية فقد ظهرت فى الجزيرة العربية منذ أن قام الشيخ محمد بن عبد الوهاب ( ١١١٥ — ١٢٠٦ هـ ) (١٠٧٣ — ١٧٨٧ م ) بدعوته الدينية الإصلاحية الرامية إلى تطهير الإسلام مما علق به من البدع ، وقد اعتنق فكرته الأمراء السعوديون فى أوائل القرن التاسع عشر وكان هذا بدء الانطلاق فى القومية العربية الهادفة إلى استقلال الجزيرة العربية وماحولها من البلاد العربية عن السلطنة العثمانية .

وقد قوّى السعوديون صلاتهم بالزعماء الدينيين المصلحين فى الأقطار

الأخرى كالشيخ محمد عبده فى مصر والألوسيين فى العراق ، وازدادت هذه الصلة قوة حين نبغ من تلاميذهم السيد محمد رشيد رضا والشيخ عبد القادر المغربى رحمهما الله والشيخان محمد بهجة الأثرى ومحمد بهجة البيطار حفظهما الله

وكان إلى جانب هذه الحركة السياسية التى قامت فى قلب الجزيرة العربية ، حركة أخرى تمتّ بصلة قوية إلى الناحية السياسية ، وهى حركة الجمعية الخيرية التى قامت فى دمشق فى أواخر عهد الوالى المصلح مدحت باشا سنة ١٨٧٨ م ( ١٢٩٥ هـ ) برعاية الوالى نفسه ، وكان على رأسها العلامة الكبير الشيخ طاهر الجزائرى ، ومن رجالاتها رفيق بك العظم وعطا أفندى الكيلانى والأمير شكيب ارسلان وسليم أفندى البخارى والشيخ جمال الدين القاسمى وأسعد بك الدرويش وسليم بك الجزائرى وشكرى بك العسلى وعبد الوهاب بك الانكليزى واستاذنا فارس بك الخورى وغيرهم من الشبان العرب المخلصين ، وقد امتدت حركتهم من سورية إلى لبنان فاتصلوا ببعض رجالاته فى بيروت كالشيخ أحمد عباس الأزهرى والشيخ عبد القادر المغربى والشيخ محمد رشيد رضا والأمير شكيب أرسلان والسيد عبد الغنى العريسى والسيد محمد المحمصانى والسيد عمر حمد وعملوا جميعا فى دمشق وبيروت على احياء جذوة القومية العربية ، والوقوف أمام حملة التتريك التى كانت تسعى إليها الدولة العثمانية ، وإن كانوا يختلفون فى الطريق المؤدية إلى ذلك ، فبعضهم يرى أن الحركة يجب أن تهدف إلى انتزاع حقوق العرب من الاتراك انتزاعا بالقوة بعيداً عن الجامعة العثمانية الإسلامية ، وهو رأى الشبان ، وبعضهم يرى أن الأصلح فى نظرهم وفى تلك الظروف ، أن يكون ذلك ضمن الجامعة العثمانية الإسلامية ، وهو رأى الشيوخ ، وكان شيخنا المغربى والشيخ رشيد رضا والأمير شكيب أرسلان يرون الرأى الثانى كما سنفصله فيما بعد .

[ أما بعد ] فهذه لمحة رأينا أن نقدمها بين يدى محاضراتنا لنبين البيئة التى ظهر فيها الشيخ الإمام عبد القادر المغربى ، والمحيط الذى نشأ فيه ، والحالة الاجتماعية والثقافة التى كانت عليها بلاد الشام فى تلك الفترة .

# أسرته وسيرته

فى السابع والعشرين من شهر شوال سنة ١٣٧٥ هـ الموافق ليوم ٧/٦/١٩٥٦م فجعت اللغة العربية والأمة الإسلامية بالشيخ الإمام المصلح اللغوى عبد القادر المغربى بعد جهاد طويل فى سبيل خدمتهما والسعى المتواصل لرفعة شأنهما والذب عن كيانهما ، دام ستين سنة على أقل تقدير ، فقد ولد رحمه الله فى ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) وحمل القلم مجاهداً ومصلحاً وله عشرون سنة فلم يتركه حتى توفاه الله .

والفقيد من أسرة علمية عريقة فى الدين والفضل :

فأبوه : هو الشيخ مصطفى بن احمد بن عبد القادر بن عبد الرحمن المغربى . وعبد الرحمن هذا[1] تولى منصب الافتاء فى اللاذقية وطرابلس والشام مدة ٤٥ سنة ، وقد ترجمه المرادى فى تاريخه ( سلك الدرر ) وقال إن وفاته كانت سنة ١١٩١ هـ ، وبيتهم فى طرابلس ، كما فى تونس ، بيت علم وقضاء وفتيا ، استمر ذلك فيهم منذ أن هاجر جدهم (الشيخ محمد درغوث (طورغود) من تونس إلى طرابلس فى أواخر القرن الحادى عشر للهجرة .

وكان للشيخ احمد عناية خاصة بتنشئة ولده مصطفى على العلم ، فتلقى التجويد على ( الشيخ العريف ) وطلب مبادىء العربية على ( الشيخ عرابى ) ، وكان من رفاقه فى هذا الطلب مصطفى افندى كرامة والشيخ ابراهيم الأحدب نزيل

---

(١) هو عبد الرحمن بن عبد القادر بن عبد الرحمن بن عبد القادر بن عبد الله بن أحمد ابن محمد المغربى التونسى من آل درغوث فى تونس وهى محرفة عن ( طورغود ) وهو اسم جدهم الأصلى طورغود باشا أمير البحر التركى المتوفى عام ٩٧٢ هـ (١٥٦٤ [illegible] والمدفون بجامعه فى مدينة طرابلس الغرب كما ذكره مؤرخو تونس ومنهم الوزير أحمد بن أبى الضياف فى ( تاريخ تونس ) ، والشيخ محمد السراج فى ( الحلل السندسية فى الأخبار التونسية ) .

بيروت ، ثم عكف على تلقى العلوم الدينية من حديث وتفسير وفقه على على (الشيخ رشيد الميقاتى) ، واشتهر فى ذلك العهد (الشيخ يوسف الأسير الصيداوى ثم البيروتى ) فى فنون العربية وآدابها ، فاستدعاه الشيخ احمد إلى طرابلس للاقامة ضيفا فى داره وتعليم ولده ، فلبّى الطلب وأخذ يعلمه اللغة والأدب ، وقد وجدت فى خزانة آل المغربى نسخة مخطوطة من مقامات الحريرى فى ذيلها إجازة بخط الشيخ يوسف الأسير لتلميذه مصطفى الذى قرأها عليه قراءة ضبط وتصحيح . ولما بلغ مصطفى نحو العشرين من عمره أحب ابوه إرساله إلى الأزهر لاكمال التحصيل فذهب فى سنة ١٢٦٨ هـ ولم تطل مدة إقامته فيه لرمد شديد أصابه ، فكتب إليه والده بالحضور إلى طرابلس بعد أن أجازه شيوخه : الباجورى ، والرشيدى ، والسقا ، والمبلط ، والدمنهورى . وفى عودة مصطفى إلى طرابلس من بيروت فأجازه مفتيها ( الشيخ محمد الحلوانى ) وفى سنة ١٢٧٢ هـ تزوج بالسيدة أسماء كريمة (الحاج عثمان علم الدين) من كبار تجار طرابلس ، وكانت بين الأسرتين محبة وود قديم ، ثم توفى والده وكان عمره بضعاً وعشرين سنة ، فنشط إلى العمل وضاقت عليه طرابلس فتيمم دمشق التى كانت مركز ولاية سورية ، وكانت طرابلس متصرفية ملحقة بها ، للاجتماع بعلمائها الأعلام والاستزادة من طلب العلوم ، وكان أشد اتصاله بالأمير عبد القادر الجزائرى الذى كان حديث العهد بالوفود إلى دمشق ، ثم ما لبث أن تولى سنة ١٢٨٠هـ القضاء فى محكمة الميدان ، إحدى محاكم دمشق الأربع يومئذ ، ولم يشغله ذلك عن العلم ومثافنة العلماء ، وكان كلما وجد فرصة للعمل شغلها بتأليف رسالة فى الفنون الشرعية أو غيرها ، حتى تجمع لديه عدة رسائل ، وطائفة من هذه الرسائل متوجة باهدائها إلى الأمير عبد القادر رحمه الله ، مما يجدر بنا ذكره فى هذه المناسبة أنه فى سنة ١٣١٠ هـ زار عبد القادر المغربى فى الأستانة الأمير محمد بن عبد القادر الجزائرى فأراه هذا رسالة مخطوطة وقال له: خط من هذا ؟ فقال له عبد القادر : خط والدى ، ثم تصفح الرسالة فإذا هى فى إعراب

بعض ألغاز الشواهد فقال الأمير محمد : كان والدى تعجبه مناظرة العلماء فى مجلسه ، وكان له ابن عمه ، وهو الشيخ مصطفى التهامى ، فكان يثير خلافا نحوياً أو لغوياً فى المجلس حتى يسمع ما يقول العلماء فيه ، وكان أشد ما يحتدم النزاع بين المصطفوين المغربيين : المغربى والدك والمغربى ابن عمة أبى الأمير عبد القادر ، واختلفا فى بيت من أبيات الشواهد النحوية وبعد أيام وضع والدك رسالة فى معنى البيت وإعرابه ، وافتتحها باهدائها للأمير ، وهى هذه التى فى يدك . وتاريخها ١٢٧٥ هـ .

ومن الرسائل التى ألفها مصطفى أبو عبد القادر فى تلك الأثناء رسالة ( درر التعريف بالحب الشريف ) شرح فيها حديث ( إذا أحب الله عبداً نادى جبريل : إن الله يحب فلانا إلى آخر الحديث) وقد قرظها كل من الشيخ علاء الدين بن عابدين علامة الشام الأشهر ، وعلامة آخر اسمه ( محمود ) وأغلب الظن أنه ( محمود افندى حمزه ) مفتى الشام المشهور . وله رسالة أخرى ضمنها محاورة خيالية وقعت بين مدن الشام تتسابق إلى الحظوة بولاية ( أسعد مخلص باشا ) ، ومن مصنفاته (منظومة) من بحر الرجز ضمنها قواعد المعاملات الفقهية وحدودها وأركانها وشرائطها ، وابتدأها بمسائل البيع فالاجارة فالكفالة فالحوالة فالقضاء ، وختمها بمسائل الفرائض. وله (رسالة شرح فيها منظومة محمد بن سيفا فى العلاقات البلاغية، ورسالة ( الدر المنضد فى شرح قل هو الله أحد ) وقد ألفها لما نزل دمشق ، واتصل بأفاضلها وعلمائها ، ولا سيما الأمير عبد القادر الذى كان ينتاب مجلسه على الدوام كما أسلفنا ، وكان مجلس الأمير لذاك العهد مثابة للفضلاء وكبار العلماء فكان يحصيهم فى نفسه عدداً ، ويتمنى لو يجمع شتاتهم بعد أن كانوا بددا ، فاتفق فى بعض المجالس أن جرى بينه وبين سميه الشيخ مصطفى المغربى التهامى ذكر معنى ( الصمد) الوارد فى سورة الاخلاص ، وكان مجلس الأمير غاصاً بطائفة من علماء دمشق فاحتدم الجدال بين المغربيين وكان الأمير يعجبه هذا النقاش فى العلم بينهما إلى آخر ما تقدم ذكره فى حديث الأمير محمد فى الاستانة،

وقال مصطفى أبو عبد القادر عن ذلك فى مقدمة الرسالة : فاغتنمت ماحل بينى وبين زميلى وأضمرت فى نفسى وضع تفسير على سورة الاخلاص فى رسالة موجزة يقتصر فيها على ماقاله المفسرون فى تفسيرها فألفها ثم عرضها على العلماء لأخذ خطوطهم فى تقريظها وتوقيعهم عليها ، وقد حدثنى عبد القادر المغربى أن عدد هؤلاء العلماء كان عشرين عيناً من أكبر أعيان دمشق فى ذلك العهد وفى مقدمتهم شيخ الشام ( عبد الله الحلبى ) وعلى ساقتهم قاضيها التركى ( مكتوبى زاده محمد افندى) وتاريخ تقريظه ١٢٨٣ هـ وفى السنين التى بعدها انتقل مصطفى المغربى إلى قضاء اللاذقية وبلاد أخرى فى ولاية حلب ، فأخذ خطوط بعض علماء تلك البلاد فى تقريظ الرسالة ، فأصبح عدد التقاريظ ستاً وعشرين تقريظاً ، دل مجموعها ونمط أسلوبها على حالة الثقافة والتفكير فى ذلك العهد أى منذ مائة سنة كاملة ، وقد طلب إلىّ الفقيد قبيل وفاته بأيام أن اهتم بنشرها ولكن الأجل وافاه قبيل الشروع فى ذلك .

ويظهر من تواريخ هذه المؤلفات والرسائل أن والد الشيخ المغربى أقام فى دمشق بين سنتى ١٢٧٥ و١٢٨٣ هـ أى ثمانى سنوات قضى معظمها فى نيابة محكمة الميدان الشرعية، وكان يزور طرابلس ويعود إلى دمشق لزيارة أصدقائه فيها لاسيما الأمير عبد القادر والشيخ علاء الدين بن عابدين الذى كان تولى قضاء طرابلس الشام، فكانت بينهما صداقة صميمة . وقد أديا فريضة الحج معاً، ثم تولى مصطفى المغربى بعد محكمة الميدان بدمشق، نيابة القضاء فى اللاذقية سلخ شوال سنة ١٢٨٣ هـ ١٨٦٧ م[1] وكان بعد ذلك يؤم الاستانة ساعيا إلى نيل القضاء فى بعض ولايات السلطنة فتولى بعض النيابات ، ثم اقتضته الظروف العائلية أن يرجع إلى طرابلس ويقيم فيها وذلك فى سنة ١٢٩٥ هـ ،

(١) فى هذه السنة وفى هذه المدينة ولد عبد القادر فى ٢٤ رمضان ١٢٨٤ وقد هنأ بعض شعراء اللاذقية أباه به ، ويظن أنه الشاعر عبد الرزاق الفتاحى اللاذقى . بقوله : —

هنئت يا مصطفى بطفل طالعه نادى يا سعاده
(المغربى) إن زدته واحدا أنباك عن تاريخ ميلاده

المغربى : — ١٢٨٣ + ١ = ١٢٨٤ هـ .

وفي خلال ذلك عين عضوا في مجلس إدارة طرابلس ، ولم يطب له العمل فيه لكثرة ما كان يعرض عليه من معاملات قانونية لم يكن له بها عهد ويراها لا تنطبق على أحكام الشريعة ، فيأبى الموافقة على قراراتها وكان متصرف طرابلس يومئذ ابراهيم باشا ( الذى عين بعد طرابلس لمتصرفية القدس الممتازة ) وكان يتمامل الباشا بمخالفته ففتح بذلك الشيخ على رشيد الميقاتى — أوجه مشايخ طرابلس عند الحكام فى ذلك العهد — وقال له : قل لمصطفى افندى المغربى إن مجلس الإدارة ما هو مدرسة دينية ، وإنما هو مجلس تنفذ فيه الأحكام حسب القوانين الوضعية ، وعلم بذلك الشيخ مصطفى المغربى فجعل من يومئذ كلما عرضت معاملة لتوقيعها يتلهى بقراءة كتاب بين يديه حتى تمر المعاملة من دون أن يوقعها إلى أن أتم مدة عضويته فعكف على العبادة ودراسة كتب العلم ولا سيما صحيح الامام البخارى فقد كان مشغوفا بتلاوته ومذاكرة أقرانه فى مشكلات مسائله ، ثم عرضت له مشاكل عائلية ضاق بها ذرعا لعدم تمرسه بأمثالها من الأمور الدنيوية وقد أثر ذلك فى صحته فانتقل إلى جوار ربه سنة ١٣٠٤ هـ وكانت ولادته فى حدود سنة ١٢٤٤ هـ

هذه معلومات عن أسرة « دارغوث » « المغربى » . حدثنى ببعضها الشيخ عبد القادر ، ونقلت بعضها من أوراق وجدتها بخطه فى خزانة كتبه ، وإنما ألممت بها لأبين لكم طرفاً من أخبار الأسرة التى نبغ فيها شيخنا ، والصلات القوية بين أجزاء العالم العربى مشرقه ومغربه ، والحركات العلمية والاجتماعية التى كانت عليها بلادنا فى القرنين الأخيرين .

# أوليتـــه

---

ولد عبد القادر المغربي في اللاذقية ، حيث كان أبوه قاضياً ، ثم انتقل إلى طرابلس الشام حينما انتقل أبوه إليها ، وتلقى العلم فيها على أبيه وأفاضل رجالات أسرته ، وكبار علماء بلدته ، فكان أبوه يجمع له ضوابط منظومة من قواعد العلوم المختلفة ويحمله على حفظها ، ثم ختم القرآن الكريم وهو ابن عشر سنوات ، وحفظ المتون العلمية المشهورة كالألفية والآجرومية والسنوسية وجوهرة التوحيد ، ثم لزم الشيخ حسين الجسر علامة طرابلس ومؤسس المدرسة الوطنية فيها ، وكانت هذه المدرسة أول معهد علمي محدث ، وقد وصف زميله في الدراسة الشيخ محمد رشيد رضا هذه المرحلة من عمرهما فقال في مقدمة كتاب البينات : « سبقني المغربي إلى طلب العلم وسبقته إلى مطالعة بعض كتب الأدب والتصوف والتاريخ قبل طلب العلم ... ولما دخلت المدرسة الوطنية في طرابلس الشام كان هو في الصف الأول من تلاميذها ، وكان الشعر والأدب أول أسباب التعارف والتآلف بيننا ، وكان موضع عجب مني في اجتهاده ؛ إذا شرع في حفظ درس يضع رؤوس إبهاميه في أذنيه وبقية اصابعه فوق عينيه حتى لا يسمع صوتاً ولا يرى شيئاً ، ثم يقرأ ما يريد حفظه قراءة بصوت بين الجهر والمخافتة ، ولا وسيلة لجمع الفكر وتوجيه قوة النفس أمثل من هذه الوسيلة ، ثم عطلت المدرسة الوطنية وانتقل ناظرها أستاذنا الشيخ حسين الجسر الشهير إلى المدرسة السلطانية[1] في بيروت ، وتبعه بعض تلاميذها فدخلوها ومنهم صديقي صاحب « البينات » ، ولما تركها الأستاذ وعاد إلى طرابلس عادوا معه

---

(١) أسسها في بيروت والي سورية حمدي باشا في سنة ١٣٠٠ هـ على طراز المدارس الحديثة ليستغني المسلمون عن مدارس المبشرين ، فكانت نواة تكونت حولها جمعية المقاصد الخيرية المشهورة ومدارسها .

لثقتهم بتعليمه وتربيته ، وانقطع إلى تعليم فنون اللغة وعلوم الشرع ، والتقينا ثانية عنده فى المدرسة الرجبية فكان لكل منا وجهة هو موليها فى العلوم الشرعية وإنما كنا مشتركَيْن فى طلب آداب اللغة والعلوم المصرية ومطالعة المجلات والجرائد حتى المصرية الممنوعة من البلاد العثمانية التى كانت تأتى فى البرُد الأجنبية لقناصل الدول فيطلعنى عليها بعض أصحابى من أدباء النصارى فنطالعها مجتمعين تارة أو منفردين أخرى[1] ، والحق أن المغربى وصديقه رشيد رضا قد أفادا من شيخهما العلامة الجسر فوائد قومت تفكيرهما ووجهتهما الوجهة الصالحة حتى قال المغربى عنه : « وقد كان شيخى الجسر مصلحاً دينياً دقيق النظر ، لكنه مع هذا بقى طول حياته محافظاً متحفظاً شديد الحذر ، وأهم ما استفدناه من طريقه فى الإصلاح يمكن تلخيصه بما وقع لى فى زمن الحداثة وطلب العلم ؛

ذلك أننى بعد أن تلقيت من دراستى على والدى الاستسلامَ إلى كل ما جاء فى الكتب الموروثة عن أسلافنا الماضين ، والتصديق بنصوصها من دون تردد ولا ارتياب ، عدت فاقتبست من شيخنا الجسر تعاليم فيها شىء من حرية النقد وانطلاق الفكر ، وقد تعلمنا أن النصوص الدينية الموروثة فيها الغث وفيها السمين ، وأن بينهما ما هو غير صحيح ولا معقول ولا منطبق على القرآن ولا السنة النبوية الصحيحة فيجب الانتباه إليه والتنبه عليه ، والتحذير منه ، وتمييز غثه من سمينه ، وحقه من باطله ، ولتمييز الحق من الباطل فى نقل الأخبار طريقتان :

(١) التدقيق فى سند الخبر وروايته .

(٢) تدقيق النظر فى إمكانية الخبر وعدم إمكانيته ، وهذا ما قرره الفيلسوف العربى ابن خلدون فى الكتاب الأول من مقدمته الذى بحث فيه عن طبيعة العمران ... فكان شيخنا الجسر رحمه الله فى درسه إنما

---

(١) مقدمة كتاب البينات الجزء الثانى للشيخ محمد رشيد رضا / د ، هـ / .

يشرح لنا ما قاله بن خلدون فى نظريته ، وقد علمنا بأن ندقق الخبر ونعمق النظر ، فليس كل نص يقبل ، سواء أعقل أم لم يعقل ، بل نزن كل ذلك بميزان القرآن والسنة وطبائع العمران ( أن الله أنزل الكتاب بالحق والميزان ) بينما كان والدى رحمه الله . بسبب تربيته الأزهرية ، لا يسمح لى فى أن أنحو هذا النحو فى النظر والتدقيق وأعمال الفكر فى التفريق بين النصوص الدينية .

غير أنى لما اتصلت بالسيد الأفغانى وأنعمت النظر فى دراسة تعاليمه انتقلت فى حياتى الفكرية إلى الدور الثالث أو الطور الثالث وهو أن نفهم النص الدينى فهماً صحيحاً ، مراعىً فيه قوانين اللغة ، وقواعد بلاغتهما ، ونستوثق من مطابقـــة النصّ للكتاب والسنة ، ثم نجرأ على التصريح عما فهمنا من النص سواء أوافق رأى غيرنا أم لا . وقد اقتبسنا هذه الطريقة فى الفهم من أقوال السيد الأفغانى وتعاليمه المروية المبثوثة فى العروة الوثقى أولا ، ثم فى سائر ما علق بكفنا من كتاباته وكتابات تلميذه الشيخ محمد عبده ثانياً ، فالأساس الذى بقى عليه الإصلاح الدينى إذن هو تمييز نصوص الدين والحرص على فهمها فهماً حراً ، مستندا إلى قواعد اللغة العربية وقوانين بلاغتهما ، ثم الجرأة فى الدعوة إلى الصحيح المعقول من تلك النصوص واطراح الباطل الدخيل عليها ، والجهر بذلك كله من دون جمجمة فى قول أو تقية من ذى صول[1] .

والحق أن شيخنا قد مر فى دراساته بأطوار أو أدوار ثلاثة ؛

( أولها ) دور الدراسة المنزلية فى طرابلس أو الدراسة فى المدرسة السلطانية ببيروت سنة ( ١٣٠٠ هـ ) ( ١٨٨٢ ) م ، وقد كان فيه محافظاً أشد المحافظة . تلقى فيه علوم الدين الأولية ، وحفظ ما حفظ من آى الذكر الحكيم والحديث النبوى الشريف وبعض المتون الدينية واللغوية والكلامية ،

(١) انظر كتاب [ جمال الدين الأفغانى ذكريات وأحاديث ] طبعة دار المعارف ص ٤٣ — ٤٥ .

وكان فى هذا الدور طالباً مستسلماً إلى كل ما يسمع ، حافظاً لكل ما يقال له دون أن يناقش أو يتردد أو يرتاب .

و ( ثانيها ) دور حرية الفكر وانطلاقه ومحاكمة ما يسمع ، وهو الدور الذى اتصل فيه بالشيخ حسين الجسر ( ١٨٤٥ — ١٩٠٩ م ) وكان الشيخ الجسر هذا عالماً فاضلا واسع الاطلاع على الثقافة الإسلامية ، تلقى علمه فى الأزهر على كبار شيوخه ، ثم رجع إلى بلده طرابلس ، وكان ذا نزعة إصلاحية ، فرأى ما عليه المسلمون من الجهل بحقيقة الدين ، وقواعد العقيدة الإسلامية الصحيحة فعمد إلى تأليف الرسائل الصغيرة ونشر المقالات المفيدة ، مقوماً اعوجاج العقائد ، وعاملا على نشر الإسلام الصحيح ومن أشهر ما خلف لنا فى ذلك كتاباه اللطيفان / الحصون الحميدية / و / الرسالة الحميدية / فى تبين العقيدة الإسلامية السلفية النقية من الأوضار والضلالات ، وقد كان واسع الاطلاع على العلوم الطبيعية والفلسفية فزاده ذلك رسوخاً فى فهم الدين وتنقيته مما علق به . وقد اتخذ الشيخ الجسر تلاميذه وكتبه جريدة ( طرابلس الشام ) وسائط لنشر دعوته الإصلاحية ، وكان الشابان النابغان الطرابلسيان عبد القادر المغربى ورشيد رضا ألمع تلاميذه وأكثرهم استفادة من طريقته .

( وثالثها ) دور التعمق فى الدراسة والمناقشة والبحث ، وهو الذى اتصل فيه بجريدة ( العروة الوثقى ) التى كان يصدرها فى باريس الإمامان الأفغانى ومحمد عبده ، واسمعوه يتحدث إليكم عن أول صلته بالإمامين وجريدتهما فيقول :

« أول ما فوجئت باسم جمال الدين كنت تلميذاً فى المدرسة السلطانية التى أمر بإنشائها فى بيروت الوالى حمدى باشا سنة ١٣٠٠ ( ١٨٨٢ م ) وكان ناظر المدرسة يومئذ الشيخ أحمد عباس الأزهرى ، المشهور فى بلاد الشام بعلمه وفضله والتهاب وطنيته ، رأيت يوماً الشيخ أحمد بين الطلاب وهم

فى ساحة المدرسة يرتعون ويلعبون وحوله طائفة منهم ، وبيده جريدة يشير بها إليهم ، وسمعته يقول لهم وقد ســـألوه عنها : إنها « العروة الوثقى » يصدرها السيد جمال الدين الأفغانى ويساعده فى تحريرها صديقى الشيخ عبده المصرى ، وأفاض الشيخ أحمد فى وصف ( العروة ) والغرض من إنشائهـا ووصف الرجلين وعلو مكانتهما ، وبدرت منه التفاتة وإذا تلميذان صغيران يمران أمامه فأشار إلى أحدهما وقال : هـذا ابن الشيخ عبده ، وأشار إلى الآخر قائلا : وهو أخوه حمودة ، وكنت لا آبه بهذين التلميذين ولا ارتاح لرؤيتهما ، فصرت من يومئذ أنظر إليهما بإجـــلال وأحب التقرب منهما والحـديث إليهما ، ورجعت إلى طرابلس الشام من المدرسة السلطانية عام ١٣٠١ هـ حاملا إلى صديقى الشيخ رشيد رضا صاحب المنـــار رحمه الله خبر ( العروة الوثقى ) ومنشئها ، وأخذت أبحث عن أعدادها وكانت ثمانية عشر عدداً مبعثرة لدى بعض فضلاء طرابلس الذين كانت تأتيهم عفواً أو بطلب منهم، فجعلت ألتقطها من عندهم لأنسخها وأعيدها إليهم وكان شريكى فى هذا الحرص الشيخ رشيد وكان هو ينسخ إليهم من مقالاتها أما أنا فكنت أنسخها بقلمى من ألفها إلى يائها ثم جمعت كراريسها فى مجلد[1] ثم يورد افتتاحية العدد الأول ويعلق عليها بقوله « هذه الفاتحة هى خلاصة برنامج العرض الذى أنشئت مجلة ( العروة الوثق ) من أجله ؛ تنبيه الضعفاء إلى ما يريده الأقوياء بهم ، وشرح الأسباب التى أدت إلى ضعف الضعفاء وقوة الأقوياء،ويريد بالأقوياء سياسى أوربا وزملاءهم سياسى الشرق الذين ساروا على آثارهم ، وقلدوهم فى استبدادهم بالضعفاء والتفريط فى مصالحهم فالأفغانى وعبده كانا يريدان أن يكون لهؤلاء الضعفاء — وهم المسلمون — دول قوية آخذة بأسباب المدنية والعمران الموصلة إلى العزة والاستقلال مع مراعاة تعاليم الإسلام الأساسية » .

---

(١) جمال الدين الأفغانى ص ١٣ : ١٦ وقد رأيت مجموعة العروة الوثقى بخطه فى خزانته .

فالشيخ المغربى فى طوره الثالث هو تلميذ ( العروة الوثق ) التى سيطرت على لبه سيطرة عجيبة استمعوا إليه يقول : «أعطيت العروة الوثق كل وقتى دراسة وتفهما ، وكنت أحياناً أعنى بشرح ألفاظها وتعابيرها ... ولا جرم أن ( العروة الوثق ) مهدت بين يدى ناشئة العرب مناهج فى الكتابة وأساليب الإنشاء ما كانوا يعهدونها من قبل ، ونبهت إلى وجوب استعمال كلمات اللغة الفصحى والاستعانة بها على إيراد المعانى العصرية ومطالب الحياة الاجتماعية ... وقد تضمن العدد الأول مما يحتاج إلى الشرح من فصيح اللغة نحو ثلاثين كلمة[1] » .

فأنتم ترون أن الشيخ قد فنى فى ( العروة الوثق ) وفى تدارسها وشرح ألفاظها وانتقادها ، وقد ذكر فى كتابه عن ( جمال الدين ) طرفا يسيراً مما كان قد علق على نسخته المخطوطة من ( العروة ) أحصى ما فيها من الكلمات اللغوية التى شرحها فبلغت ( فى أعداد العروة كلها زهاء خمسمائة كلمة[2] ) ، ولا عجب فإن الشيخ كان مفتونا باللغة ومفرداتها منذ نعومة أظفاره .

ولم يكن تأثير ( العروة الوثقى) فى الشيخ من الناحية اللغوية والأسلوب وحسب ، بل من الناحية الفكرية فقد قال : « إنى لما اتصلت بالسيد الأفغانى وأنعمت النظر فى دراسة تعاليمه انتقلت فى حياتى الفكرية إلى الدور الثالث أو الطور الثالث وهو أن نفهم النصّ الدينى فهما صحيحا مراعى فيه قوانين اللغة وقواعد بلاغتها ، ونستوثق من مطابقة النص للكتاب والسنة ، ثم نجرأ على التصريح بما فهمناه من النص سواء أوافق رأى غيرنا أم لا . وقد اقتبسنا هذه الطريقة فى الفهم من أقوال السيد الأفغانى وتعاليمه المروية والمبثوثة فى ( العروة الوثقى ) أولا ثم فى سائر ما علق بكفنا من كتاباته وكتابات تلميذه الشيخ محمد عبده ثانيا ، فالأساس الذى بنى عليه

---

(١) كتاب جمال الدين الأفغانى ص ١٦ ، ١٧ .
(٢) كتاب جمال الدين الأفغانى ص ٤٥ .

الإصلاح الدينى إذن هو تمييز نصوص الدين والحرص على فهمها فهما حراً مستنداً إلى قواعد اللغة العربية ، وقوانين بلاغتها ، ثم الجرأة فى الدعوة إلى الصحيح المعقول من تلك النصوص والتعاليم واطّراح الباطل الدخيل عليها ، والجهر بذلك كله من دون جمجمة فى قول أو تقية من ذى صول[١] » .

واستمر الشيخ فى هذا الدور طوال عمره يدأب ويجد ، ويدرس ويجتهد حسب شروط الاجتهادالسابقة حتى كانت له آراء ونظريات نعرض لها فيما بعد إن شاء الله ، وقد تمرس بهذا الأمر تمرساً حينما ازدادت صلته بالشيخين ، واجتمع إليهما فى الأستانة أو فى القاهرة ، فأفاد من صحبتهما واجتهد فى السير على غرارهما يتتبع آثارهما ويقرأ لهما ، ودفعه الشوق لرؤية جمال الدين[٢] ، وكان فى سنة ١٣١٠ هـ ( ١٨٩٢ م ) مقيما فى دار الخلافة ، فسافر إليه وظل فى جواره سنة واحدة أفاد فيها منه فوائد جليلة ضمن كثيراً منها فى كتابه اللطيف عن جمال الدين ثم رجع إلى طرابلس عاكفاً على دراسة آثار جمال الدين ، وأولع بعدئذ بدراسة آثار الشيخ محمد عبده ، واستجاب إلى دعوته الخيّرة ، وشرع يصدع بالاصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى فاستدعاه الإمام محمد عبده إلى مصر حيث المجال للدعوة الإصلاحية آنذاك أرحب وأوسع، ولكن ما لبث الأستاذ الإمام أن لقى وجه ربه[٣] فانصرف

---

(١) انظر كتابه عن « جمال الدين الأفغانى » ص ٤٥ .

(٢) يقول المغربى فى كتابه عن جمال الدين الأفغانى ص ٣٥ : إنه بارح طرابلس إلى دار الخلافة ليدخول فى بعض معاهدها العلمية ، ويقول الشيخ رشيد رضا فى مقدمته للجزء الثانى من كتاب البينات / و / : إنه ذهب اليها للانتظام فى سلك القضاء الشرعى . . ولم ينجح فى طلب القضاء ولو نجح لحال القضاء والقدر دون اشتغاله بالتحرير والإنشاء ولحرمت أمته العربية من هذه الآيات البينات . وليس بين القولين اختلاف فإن طلاب وظائف القضاء أو نواب القضاء كما كانوا يسمونهم آنئذ كانوا يدخلون فى معهد خاص فى الأستانة ثم يتخرجون منه نواب قضاة فى أنحاء الأمبراطورية العثمانية .

(٣) توفى الإمام محمد عبده فى ١١ تموز ( يوليو ) ١٩٠٥ .

المغربى إلى الصحافة وكتب فى كبريات جرائد مصر مقالات أثارت العزائم وشحذت الهمم الغافية )[١] .

يقول رشيد رضا واصفاً الحقبة التى سبقت سفر المغربى إلى القاهرة سنة ١٩٠٥ : ولما اشتد اضطهاد الحكومة الحميدية للأحرار ، وأصحاب الأقلام والأفكار ، وأسرفت فى إيذاء قراء المنار ، كان نصيب صاحبى ونصيب آخرين من أهل العلم والفضل السجن فلما أنقذه الله تعالى منه هاجر إلى مصر فسألت شيخنا الأستاذ الإمام أن يجعله كاتباً للافتاء عنده فارتاح لذلك واستكتبنى مذكرة لوزارة الحقانية فى ذلك وهو فى سرير المرض الذى توفاه الله تعالى فيه ، لأنه تعالى قدر أن يكون هذا الرجل كاتباً اجتماعياً لا قاضياً ولا كاتبا شرعيا . وهو لو لم يكن موطنا نفسه على هذا العمل ، ولا شاعراً بقوة استعداده له ، حتى أنه لما دعى إلى الكتابة فى الجرائد المصرية استشارنى فى الموضوعات التى ترجى فائدتها وتلقيها بالقبول ، وفى الأسلوب الذى يحسن اختياره ، ولعله ما أبهم امضاءه ( المغربى ) فلم يصرح باسمه إلا لأن شعوره باستعداده كان دون قوته ، كما هو شأن طلاب الكمال الذى لا حد له بعد أن يصيبوا حظاً عظيما منه ، وأما الناقصون المغرورون فانهم يتيهون عجباً بكل ما يخطونه[٢] والحق أن المغربى لو سلك سبيل القضاء والوظائف الرسمية لضاع فى ذلك الخضم ، ولكن انصرافه إلى الكتابة جعل منه فرداً من بناة حركتنا الاصلاحية ، وقد كان فى القاهرة يحرر فى جريدتى « الظاهر » و « المؤيد » حتى عرفه الناس على الرغم من توقيعه مقالاته بتواقيع مستعارة ، إلى أن انزاح كابوس الظلم الحميدى عن البلاد الشامية بعد إعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ م فرجع إلى بلدة طرابلس الشام سنة ١٩٠٩ م .

أخذ المغربى بعد اتصاله بالأفغانى ومحمد عبده يجهر بضرورة الاصلاح

---

(١) انظر مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق المجلد ٣/٤٩٩ .

(٢) انظر مقدمة البينات الجزء الثانى ( د ) .

الدينى والاجتماعى والتنبيه إلى تأخر المسلمين ولزوم إحداث انقلاب دينى اجتماعى يعود بالمسلمين إلى بساطة الدين وأصوله الثابتة، كما كان يجهر بانتقاد الطريقة التى كان عليها رجال العهد الحميدى فى إدارة البلاد العثمانية وأسلوبهم فى الحكم مما أخر المسلمين عن أمم الأرض، وكانت رسائله بهذا الشأن لا تنقطع إلى الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا الذى سبقه فى السفر إلى مصر عام ١٣١٥ هـ وقد عثرنا على بضعة أبيات من قصيدة كان المغربى نظمها يخاطب بها السلطان عبد الحميد وينتقد سياسته الداخلية انتقاداً شديداً وإهماله إصلاح أحوال المسلمين من رعيته وهى قوله :

| | |
|---|---|
| بلّغ أميرَ المؤمنينَ نصيحة | تبغى القبول ولا تريدُ ثوابا |
| قَبر تعمّره ببدرة عسجد | وتعيد عمرانَ البلادِ خرابا[1] |
| تكسو الدعىّ الحُلة البيضاء إذ | تكسو الشعوب من السواد ثيابا |
| تجبى الضرائب من فقير مملق | تغنى بهـا المتملق الخلّابا |
| تُقصى إلى الأطراف كلّ محنّك | وتبيت تُدنى النّوك والأوشابا |
| كم من برىء صادق حكمت فى | حوبائه المتجسس الكذابا |
| بل هذه الخصيان كيف تقدمت | بيض الفحول السادة الأنجابا؟ |
| ضيّعتَ ملكك وامتهنت رجاله | فعَلامَ تحوى التاج والألقابا؟ |

ثم أن الحكومة الحميدية لم تجد بدا من اعتقاله فأوعزت ( سلطات المابين ) فى الآستانة بذلك إلى خليل باشا البكدشلى والى بيروت فحضر إلى طرابلس بنفسه واعتقل المترجم فى أوائل عام ١٣٢٢ هـ ١٩٠٤ م ليلا ثم ساقه إلى بيروت ليلا تحت حراسة شديدة خوفا من هياج الرأى العام وأقارب المترجم، وهم كثيرون، وقد بقى موقوفا عدة أشهر فى (دائرة البوليس)

---

(١) يشير الى الأموال الطائلة التى امر السلطان عبد الحميد الثانى بانفاقها على بناء زاوية وضريح لوالد شيخه السيد ابى الهدى الصيادى الرفاعى فى حلب .

بسراى البرج ثم أن الحكومة وضعت يدها على مكتبته وأوراقه وأخذ الوالى بنفسه يمعن فيها بحثاً وتنقيباً ولكنها فى نهاية الأمر أعادت إليه بعضها بعد خروجه من المعتقل، ولما أفرج عنه بعد أشهر واتصل ذلك بعلم الأستاذ الإمام الشيخ عبده استدعاه إلى مصر وقدم إلى وزارة مصطفى فهمى باشا طلبا بتسميته كاتب فتوى لديه ، وحين وجد المغربى أنه لم يعد فى وسعه البقاء فى البلاد العثمانية تحت هذه المراقبة الشديدة من رجال عبد الحميد استطاع الافلات والسفر خلسة إلى قبرص فى الباخرة الخديوية ومنها إلى مصر فبلغها فى ١٧ ربيع الثانى ١٣٢٣هـ الموافق ٢٠ يونيو ١٩٠٥م ولكن المنية كانت قد عاجلت المفتى الشيخ محمد عبده بعد وصوله إليها بقليل فعكف على الاشتغال بالصحافة محرراً فى جريدة الظاهر التى كان يصدرها المحامى المشهور إذ ذاك (محمد بك أبو شادى) ثم دعاه الشيخ على يوسف للمشاركة فى تحرير « جريدة المؤيد» خلفا للمرحوم السيد عبد الحميد الزهراوى فاتسع له فيها المجال لنشر فكرة الاصلاح الدينى والاجتماعى ونقد أوضاع المؤسسات الدينية ومنها الأزهر الشريف ، وقد كتب عشرات المقالات فى هذا الموضوع وفى البحوث الدينية واللغوية والأدبية الأخرى ، وظل يحرر فى « جريدة المؤيد » إلى أن أعلن الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ م فعــــاد إلى سورية فى عام ١٩٠٩م وواصل الكتابة فى « المؤيد » والصحف المصرية الكبرى كاللواء ، والشعب ، والعلم ، ومجلة الهداية وبعض صحف بيروت ، ومما نشره فى المؤيد يومئذ مقال بعنوان (حجاب المرأة فى الإسلام) تناقلته عنها الصحف السورية وكان له تأثير عميق فى البلاد وحمل عليه المحافظون من أجله حملات منكرة .

وفى عام ١٩١١م ١٣٣٠هـ انشأ فى طرابلس الشام جريدة باسم (البرهان) وكانت مباحثها تدور حول بعض أمور سياسة الدولة الداخلية وموضوعات الاجتماع الإسلامى والدعوة إلى وحدة الكلمة والعمل على تكوين كتلة إسلامية قوية تستطيع أن تقف فى وجه مطامع أوروبا ، وكان يمدها

بالمقالات بعضُ كبار الكتاب كالأمير شكيب ارسلان المؤرخ المصلح المشهور والأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي أديب فلسطين الكبير وغيرهما من كبار كتاب العصر ، ولكنه اضطر إلى وقفها عند اشتراك الدولة العثمانية فى الحرب العامة أواخر عام ١٩١٤ هـ لأن أكثر مشتركيها فى مصر والهند ، وقد دعته الحكومة العثمانية فى تلك السنة إلى الانضمام إلى الشيخ عبد العزيز جاويش والأمير شكيب أرسلان والسفر إلى المدينة المنورة لتأسيس كلية إسلامية فيها أطلقت عليها الحكومة اسم « معهد دار الفنون » فأسسوها باحتفال حافل إلا أن نشوب الحرب العامة قضى على ذاك المعهد . ثم أنشأته وزارة الأوقاف العثمانية فى القدس عام ١٩١٥ م كلية دعتها « الكلية الصلاحية » وكان الغرض منها تخرج علماء ومبشرين بالدين الإسلامى يجمعون بين العلوم الدينية والعلوم العصرية ، فاشترك المغربى فى تأسيسها وتنظيم شئونها مع الشيخ عبد العزيز جاويش والأمير شكيب أرسلان وأخذ يدرس فيها الآداب العربية وفنون البلاغة والسيرة النبوية إلى أن أسست الحكومة العثمانية فى دمشق عام ١٩١٦ م « جريدة الشرق » وسمّته مديراً لهيأتها التحريرية فانتقل إلى دمشق وأخذ ينشر فى الجريدة مقالات فى الأدب والتاريخ والإصلاح الإسلامى ، ومما نشره فيها عام ١٩١٦ م مقال بعنوان « النهضة الدينية فى الأمة الإسلامية » دعا المسلمين فيه إلى التجدد ونبذ الخرافات ، وقد أحدث دويا فى البلاد بين الشيوخ وأرباب التقليد ، وأعيد طبع المقال فيما بعد فى الجزء الثانى من « كتاب البينات » ولما رزحت سورية تحت الاحتلال الانكليزى — الفرنسى فى أواخر عام ١٩١٨ م لزم الشيخ داره وعكف على التأليف ، ومن تآليفه التى أتمها فى تلك الحقبة تفسيره لجزء ( تبارك ) ، وقد حذا فيه حذو الأستاذ الشيخ محمد عبده فى تفسيره لجزء ( عمّ ) .

وحاول المحتلون الفرنسيون أن يعهدوا إلى الشيخ بعض الأعمال العلمية والدينية ، ومنها افتاء طرابلس للافادة منه ، ولكنه كان يرفض بإباء

إذ كان متشائماً من الحالة التى آلت إليها البلاد بعد أن رأى الانكليز والافرنسيين يقسمون بلاد الشام إلى مناطق ودويلات صغيرة ، ويغدرون بالملك حسين حليفهم وينفونه إلى قبرص وكثيراً ما كان ينشد قول أبى العطاء السندى فى بنى أمية :

أليسَ اللهُ يعلم أن قلبى يُحبّ بنى أمية ما استطاعا

وما بى أن يكونوا أهلَ عدلٍ ولكنى رأيتُ الأمر ضاعا

ولما أنشأت حكومة المرحوم الملك فيصل بن الحسين فى دمشق ( ديوان المعارف ) الذى سُمّى فيما بعد ( المجمع العلمى العربى ) كلفته أن يكون عضواً عاملا فيه فلم يتردد فى القبول لأنه رآه بعيداً عن جو السياسة، ووجد أن العمل فيه يساعده على خدمة اللغة العربية ومدها بالمصطلحات العلمية الجديدة فمكف على العمل فى المجمع من وضع مصطلحات علمية وتصحيح أخطاء شائعة وإلقاء محاضرات كثيرة ممتعة فى مواضيع مختلفة بلا كلل ولا ملل ، وعهد إليه أيضاً فى عام ١٩٢٣ بتدريس اللغة والآداب العربية فى كلية الحقوق بالجامعة السورية حتى إذا كان عام ١٩٣٤ م أصدر فؤاد ملك مصر مرسوماً بتسميته عضواً عاملا فى مجمع اللغة العربية الملكى بمصر وهو الذى أطلق عليه فيما بعد اسم (مجمع اللغة العربية) فكان لا ينقطع عن السفر إلى القاهرة فى شتاء كل سنة لحضور جلسات هذا المجمع والمذاكرة مع إخوانه الأعضاء فى مواضيعه وتزويد مجلته بالكثير من المقالات والأبحاث العلمية واللغوية المختلفة .

وكان أصاب ( المجمع العلمى العربى ) فى دمشق عام ١٩٣٣ م بعض الاضطراب واضطر إلى التوقف لأزمات مالية طارئة فانقطعت مجلته عن الصدور ، إلى أن كان عام ١٩٣٥ م فعهدت الحكومة السورية إلى المغربى برئاسة مجمع دمشق فقام بأعبائها على غير رضى منه لأنه كان يحب البعد عن الأعمال الإدارية التى تحول بينه وبين الانقطاع للعلم والتفرغ للبحث ، فأعاد إصدار

المجلة كسابق عهدها ، ثم عادت الأزمة المالية مرة ثانية فى عام ١٩٣٧م فتوقفت المجلة أيضا عن الصدور حتى أوائل عام ١٩٤١م ثم أعيد إصدارها بعد أن وضعت لها المخصصات الكافية فى الميزانية وعاد المغربى إلى أعماله العلمية يشغل منصب نائب رئيس المجمع بعد أن اسندت الرئاسة إلى المرحوم محمد كرد على فاستأنف بحوثه العلمية واللغوية وإلقاء المحاضرات الشيقة الممتعة ، وفى عام ١٩٤١م انتخب عضوا فى ( المجمع العلمى العراقى ) ببغداد ، فكان يمدّ هذه المجامع الثلاثة بآرائه وبحوثه التاريخية والأدبية واللغوية بدون انقطاع إلى أن اختاره الله إلى جواره بعد أن خلّف للخزانة العربية عدداً كبيرا من المؤلفات والمحاضرات والابحاث .

أما مؤلفاته فنتكلم عن كل منها فيما بعد ، وأما محاضراته التى تنيف على المائة محاضرة فقد كان ألقى أكثرها فى قاعة المجمع العلمى بدمشق والباقى فى بعض المدن السورية واللبنانية والمصرية فى غضون ثلاثين سنة ، نشر شىء منها فى مجلدات المحاضرات الثلاثة التى أصدرها المجمع المذكور ، وأما أبحاثه العلمية المتنوعة ومقالاته التى تدور حول الإصلاح الدينى والاجتماعى والتاريخ والأدب فإنها جد كثيرة وكان نشر معظمها فى « جريدة المؤيد » كما أن أبحاثه اللغوية وأراءه فى تنمية اللغة العربية وإحياء ألفاظها وما إلى ذلك فهى مبثوثة فى مجلة مجمع اللغة العربية المصرى ومجلة المجمع العلمى فى دمشق.

وكان للمغربى شعر هو أقرب إلى شعر العلماء ، كان قاله فى أول نشأته الأدبية ، ثم لما خاض غمار الكتابة والتاليف أعرض عن النظم إعراضا تاما ، على أن له بعض المقطعات التى نظمها فى بعض المناسبات وهى متينة التركيب ولطيفة المعنى (١) .

---

(١) ومنها قوله : فى وصف مرضة ( كف الأسد ) وغيرها ويذكر تداويه بالبنسلين :

كفكفت كفك يا أسد يا أيها الخصم الالد
بالله ثم البنسلين وقل هو الله أحد
وأويت من ربى ورحمته إلى ركن أشد
أنشبت ظفرك فى لا ترنى لبثت أو ولد

=

وكان المغربي إذا ما قرأ كتابا قديما أو حديثا علق عليه هوامش

=

أو صاحب يرجو لي الإ بلال من سقم الجسد
ونسيت في الآجال ما حكم الإله وما وعد
هذا يعجل حتفه وحياة ذا أنساً ومد
أرسلت طير الشؤم منقضاً لحام وما ورد
وسللت سيف البغي منسلطاً لحاك وما عضد
ورميت سهمك خلسة فأصاب درعاً من زرد
إن كنت ترصد موتتي فالبنسلين لك الرصد
أو إن أردت مساءتي فالله ربي لم يرد
وأراك مغرى بالشيو خ تسومهم برح الكمد
متهدداً متوعداً لا بالصداع ولا الرمد
بل بالتصلب والحصا والضغط أو ربع السدد
والفالج والرثيات أو مرض المثانة والدرد
والكل سهل هين في جنب تخليط الفند
هي علة في الرأس لكن ذكرها عم البلد
هي علة في الفكر تحكي الكفر بالله الصمد
هي علة قد رد صا حبها إلى عمر نكد
من بعد علم لم يعد يدري ولا سرد العدد
هي علة أيعيش صا حبها بجد أم بدد
عدوه في الأحيا وفي الأموات أجدر أن يعد
فاعجب له يمشي على الأ رضين هاماً قد لحد
يا رب تلك شكيتي فاغفر ووفق للرشد

* * *

وقال أيضاً :

ايا ابن الثورة الكبرى تقبل دعاءاً من أخ ثقة صميم
تركت حمى العروبة لهف قلبي عليه أتى لصهيون لئيم
ورحت تقيم في الأفغان تشدو ( الاحي المنازل بالغميم ؟ )

قالها على لسان الدكتور خالد الطباع ليرسلها إلى المرحوم الشيخ فؤاد الخطيب الشاعر المشهور وقد عين وزيراً مفوضاً للملك ابن سعود في الأفغان — واستوحى المعنى من بيتين لبعض ظرفاء الأعراب وهما :

رددت مخافة الحجاج أني بكابل في إست شيطان رجيم
مقيم في مضارطه أغني ألا حي المنازل بالغميم

* * *

وقال أيضاً يخاطب الشيخ العالم الايراني المشهور أبا عبد الله الزنجاني :

إليك أخي في الله أحكي شهادة تجلي لعين الناس كنه دخائلك =

وتعليقات وشروحا لو جردت وطبعت لبلغت كتابا يفوق الأصل ، وقد رأيت فى خزانة كتبه الكثير من ذلك كما رأيت طائفة كبيرة من الكراريس كان لخص فيها فى حداثته بعض العلوم الدينية واللغوية والكونية وشرحا على دواوين البحترى والمتنبي وابى تمام . وخزانة كتبه تعتبر من الخزائن المشهورة فى سورية لما حوته من الكتب المخطوطة فى علوم الدين واللغة حتى أن بعضها يعد من الكتب النادرة ، هذا فضلا عن الكتب المطبوعة فى مختلف الفنون وقد كتب الأستاذ المرحوم عبد الله مخلص مقالة طويلة عن نفائس ذخائرها فى مجلة المجمع العلمى العربى .

هذه خلاصة أولية عن الرجل وسيرته وحياته العلمية . أما اخلاقه وطبائعه ومزاياه فنوجز الكلام فيها بقولنا : كان حر الفكر صريحا متشددا فى رأيه لايحيد عنه متى اقتنع انه صواب ، صابرا على هجمات خصومه فى سياساته وآرائه الدينية لا يبالى بهم ، وكان النصر بجانبه فى أ كثر الأحيان ، وكان بعيدا عن الدنيا وحطامها لم يسع قط إلى منصب أو فائدة مادية مهما عظمت ، وكان كثير الاهتمام بشئون العالم الإسلامى وجمع شتات المسلمين والسعى لرفع مستواهم ومجاراة الأمم الأخرى والتدليل على أن الدين وأصوله تحض على

---

= فلست بسنى ولست بشيعة ولكن الى القرآن رجعى شمائلك

* * *

ومن ذلك قوله :

يا صديقاً لقد ملكت بصدق الـقول ودى فكنت خير صحابى
ان شوقى اليك أعظم من أن يشرح المرء كنهه فى كتاب

* * *

وقوله :

وما ألذ الحياة لو لا مصائب المرء فى حياته
يموت كل امرىء لعمرى بقدر من مات من لداته

كل ما فيه الخير للبشر ، ويظهر هذا بصورة جلية فى مقالاته المنشورة فى (المؤيد) وفى كتاب البينات ومحاضراته العديدة، وإن رسوخه وطول باعه فى علوم اللغة العربية وأسرارها. ولاسيما تمكنه من علم الصرف ، كان يساعده كثيراً على التعمق فى فهم النصوص الدينية وأقوال شعراء العرب والالفاظ التى نقلت عنهم واشتقاقاتها وإدراك المراد منها ، ويظهر هذا فى تفسيره لجزء تبارك وفى كتابه الاشتقاق والتعريب ، ولا ننسى جولاته الواسعة فى شرح الحقوق التى منحها الإسلام للمرأة ودفاعه عنها فى مناسبات عديدة ، كما أنه كان رحمه الله واقفا بالمرصاد لكل متهجم على الدين الإسلامى أو على اللغة العربية فكان يقارعهم بقلمه ويدفع الحجة بالحجة ، بأسلوب رفيع فى المتانة وقوة الدليل ، وكان أسلوبه بعيدا عن الاسفاف ولم ينقل عنه أنه استعمل فى ردوده ألفاظا نابية أو عبارات شائنة ، كما كان يتصف بصفة قلما جاراه فيها أحد من العلماء فى عصره وهى الصبر على العلم والبحث والتأليف ساعات معتزلا فى غرفة عمله ، مكبا على كتبه وقراطيسه بلا كلل ولا ملل ، وقد نقل عنه أنه فى حداثته كان يقبع فى غرفته أياما خاليا بنفسه لا تفتح غرفته لأحد إلا للخادم التى تناوله طعامه .

ومما تجدر الإشارة إليه هو سعيه المتواصل إلى توسيع افقه العلمى والثقافى منذ فجر حياته، فقد أولع منذ حداثته بدراسة اللغة الإفرنسية وحفظ الشيء الكثير من اشعارها غير أنه كان يصعب عليه الكلام بها ، لأنه تلقاها عن الكتب والمعاجم وعن أساتذه سوريين ولم يتعلمها على أبنائها وقد كان مع ذلك يحسن الترجمة عنها مستعينا بالمعجم ، وقد ترجم أثناء إقامته فى مصر رواية « غادة الكاميليا » لاسكندر دوماس ومثّلها الشيخ سلامة حجازى فى عام ١٩٠٨ م .

وكان للمغربى فى محاضراته العامة ودروسه التى يلقيها على طلابه فى الجامعة السورية أسلوب هو الغاية فى الطلاوة ، كما كان له صوت حسن الجرس جهورى المقاطع ، ينحدر كأنه السيل بلا تلعثم ولا توقف ، كل ذلك

ببيان مشرق ، وأسلوب أخاذ بحيث لا يملّ سامعه مهما أطال . وكانت له قدرة بارعة على شرح عويصات المسائل العلمية ، واسرار العربية وتقريبها من الأفهام بالشواهد وضرب الأمثال .

هذه صفحة عن نشأة عبد القادر المغربي وسيرته ، وهي كما ترون صفحة مشرقة تصور حياة شخصية عاملة عالمة قام صاحبها بقسط ليس باليسير في خدمة دينه ولغته وبلاده وقوميته العربية .

---

## المغربى الصحفى والمصلح

رأيتم ان المغربى كان مؤمنا بأن الصحافة هى الوسيلة الوحيدة للاصلاح وإنقاذ الأمة الإسلامية من ربقة الجهل والفوضى والتقهقر ، وان اشياخه فى الشام ومصر كانوا يتخذونها أداة لإبلاغ آرائهم ، ونشر أفكارهم ودعوة الناس إلى مذاهب الخير التى يرتأونها .

ولذلك عمد إلى السير فى هذا الطريق فانصرف إلى الصحافة يمارسها وينشر بوساطتها آراءه منذ أن امتشق القلم فى مصر سنة ١٩٠٥ بعد وصوله إليها بسبعة أشهر إلى أن توفاه الله .

وقد أبقى لنا فى خزانة كتبه أضابير جد قيمة أحصى فيها مقالاته الصحفية ورتبها ترتيبا دقيقا كاملا منذ سنة ١٩٠٥ إلى سنة ١٩٥٦ وكأنه كان يريد نشرها فى مجلدات ، فقد صنفها تصنيفا متقنا ، وكان قد نشر قسما منها فى مجلدين سماهما « البينات » ضمنهما بعض مقالاته التى كتبها ما بين سنتى ١٩٠٦ — ١٩١٠ م .

ونحن إذا رحنا نعرض مقالاته ورسائله الصحفية ونستقرىء بحوثها العلمية والأدبية والسياسية والاجتماعية نجد له فى سنة ١٩٠٥ مقالا واحدا نشره فى المقطم ، ولعله أول مقال كتبه وكان عنوانه «التمثيل العربى[1] » وقد كتب على هامش الجزازة التى تحوى المقالة « كتبتها بعد وصولى إلى القاهرة بسبعة أشهر فى سنة ١٩٠٥ م ( ١٣٢٣ هـ ) » ولعلها أول مقالة كتبها فى مصر .

ونحن إذا درسنا تلك المقالة دراسة دقيقة نجد أسلوبا مشرقا وأفكارا نيرة وملاحظات وتوجيهات تدل على سمو فكر الكاتب على الرغم من ثقافته البسيطة ومحيطه الأولى الذى تخرج فيه . فقد ابتدأ مقالته بتبيين فوائد التمثيل وقرنه إلى صنويه : الصحافة والخطابة ، بل هو يذهب إلى تفضيله على الصحافة والخطابة لأنه أقربها تأثيرا وأنجعها علاجا فى تربية الأمم ووسائل تهذيبها .

(١) ارجع إلى هذا المقال فى آخر هذه المحاضرات .

ثم شرع فى تصوير التمثيل وكيف أن الممثل يعمد إلى حادثة مشهورة أو رواية مأثورة فيعرضها على الانظار ويقلد رجالها وكل من له مشاركة فى حوادثها متحريا محاكاتهم فى أزيائهم وهيئاتهم وعادتهم وسائر ملابسهم .

والمغربى فى وصفه عمل الممثلين واصف بارع دقيق الملاحظة مبسط للأمور المعقدة ، شارح للقضايا الغامضة شرحا يدلنا على دقة تفكيره وسلامة بصيرته وبخاصة حين يقول إن : ( فن التمثيل إذن محاكاة وتقليد ، والتقليد والمحاكاة غرائز من غرائز الإنسان نشأت معه مذ كان على بساط بساطته الأولى ، انظر إلى الطفل فإنه لا تمسه نفحة من العقل حتى يأخذ فى تقليد من حوله ومحاكاتهم فى أقوالهم وأعمالهم ، فلا غروان كانت النفوس بالتمثيل اعلق ، وإليه أحن وفيه أرغب ) ويبين المغربى بعدئذ أن الهدف من التمثيل هو إصلاح الشعوب وتقويم النفوس والاحتيال على سوق الناس إلى ماريده بهم المصلحون إما عن طريق الأساليب البلاغية أوضرب الأمثال أو تصوير الوقائع التاريخية أو نحت التماثيل أو الغناء ، وإن التمثيل هو جماع تلك الفنون إذ يتناول الكاتب المؤلف الحادثة التاريخية فيضربها مثلا يتجلى فيه جمال الفضيلة بأبهى مظاهرها وقبح الرذيلة بأبشع صورها ثم يكسو ذلك من جلابيب البلاغة والشعر والتلحين والتصوير ماشاء وشاء تمكنه من نواحى تلك الفنون .

ثم يذكر المغربى اهتمام كتبة الفرنج بالتأليف فى فن التمثيل لأنهم وجدوا فيه ضالتهم من قيادة الشعب وسوقه من حيث يشعر أولا يشعر إلى تربية ملكاته ، ثم يلتفت المغربى بعدئذ إلى قومه فيرى حالتهم الاجتماعية المتقهقرة ويتمنى أن يعظم شأن هذا الفن الاجتماعى الإصلاحى بين ظهرانيهم ، ثم يثنى ثناء طيبا على رائد هذا الفن فى مصر الشيخ سلامة حجازى ويصفه بأنه ممثل بارع ممتاز ببراعته وبذل وسعه فى تحسين الفن والسعى لإتقان أساليبه حتى كاد يتجاوز به طور الطفولية فيجب على أفاضل البلد وجمهور الكتاب أن يشجعوه ويشدوا أزره فيما يهدف إليه .

ولا ينسى المغربى أن يحرض من آنس من نفسه استعدادا وميلا فطريا إلى هذا الفن أن يعكف عليه وأن يتأهب له اهبته بالإكثار من قراءة الروايات الافرنجية واستظهار جيدها وترجمة المفيد منها ، ثم يعرض بهذه المناسبة إلى موضوع ترجمة الروايات والتمثيليات التى هب الناس فى ذلك الوقت إلى ترجمتها فينقدها نقدا علميا صحيحا ، ثم يعرض إلى الروايات المؤلفة ويقارن بينها وبين الروايات المترجمة ويقول : ومن أوتى حظا من الفهم فى هذا الفن أدرك لأول وهلة الفرق بين الروايات المترجمة والأخرى الموضوعة وضعا فإن حوادث الأولى تسرد على نسق غريب فى أسلوب عجيب فهى كأنها متكافلة طورا ، يفسر السابق اللاحق وآونة يوضح المتأخر المتقدم ، ولا يسمع السامع حادثة منها حتى تنشب انفاسه فى حلقه مبهوتا متشوقا إلى معرفة ما يليها فإذا سمعه وقع من نفسه موقع الدهشة والاستغراب ، وليس كذلك الروايات الأخرى - أى الروايات المؤلفة - حتى ماينسب إلى أشهر المشتغلين فى الفن ، ويطيل المغربى فى نقد الروايات المؤلفة ثم يقول : إن كتابها يغفلون عن إيضاح مغزاها والغرض المفيد الذى وضعت من أجله من حث على فضيلة أو تغيير رذيلة بعبارات جلية وأساليب واضحة بحيث تسترعى أسماع النظارة ، ولا ينسى أن يوجه ملاحظاته فى آداب الاستماع والاعتبار ، وبما يجب على النظارة أن يتحلوا به من الحشمة فيقول : (أما النظارة المتفرجون فإن أكثرهم لاهٍ عن تعرف الأسرار بهتك الحجب والاستار ، مشغول عن تفهم الحكم والفضائل بما فوقه مائل وليس تحته طائل ، إنه يحسن بنا أن نتشبث بالحشمة والوقار وندع الطيش وخيانة الأبصار ونترك كثرة اللغط والضوضاء ، سيما عندما يروقنا شيء من أقوال الممثلين وأفعالهم فإن اللغط يحرمنا فهم تتمة السياق بل ربما شوش على الممثلين أنفسهم فلا يدرون أيمضون فى حديثهم أم يسكتون بينما يفرغ القوم من جلبتهم وضوضائهم .

هذه هى ملاحظات المغربى وأقواله فى وصف مسارح التمثيل المصرى قبل

نصف قرن ، وهى لعمر الحق ملاحظات جد لطيفة ، وأقوال تدل على عمق الملاحظة .

أما لغته فى مقاله هذا فهى كما ترون لغة بسيطة قريبة المنال أفلت فيها من كثير من قيود الكتاب فى عصره ومن صناعاتهم اللفظية ، اللهم إلا بعض السجعات والجمل المترادفة ، والمفردات المتكررة التى تدل على أن الرجل كان حتى ذلك الحين متأثرا بالأساليب القديمة على الرغم من محاولته التملص منها . وسنرى أنه فى مقالاته التالية سينطلق شيئا فشيئا من قيود الكتابة القديمة ويسيل قلمه بقوة عجيبة .

ولما أطل عام ١٩٠٦ م انخرط المغربى فى المحيط المصرى وانضم إلى أسرة جريدة الظاهر التى كان يصدرها الأستاذ محمد أبو شادى كما قلنا فأخذ يحبر المقالات الاجتماعية والاصلاحية ، ومن يستعرض هذه المقالات يجدها تبحث فى ( سيء العادات ووجوب الانتباه إليها والذهول عنها ، والخلاص منها ) وفى ( استهتار العامة بمصر وما يجب على العلماء نحوهم ) وفى ( الفضائل فرائض ) وفى ( حياة الأمة فى ثروتها ) وفى ( الأمة كالفرد فى أطواره وبلوغ استقلاله ) وما إلى هذا من المباحث الاجتماعية . كما نجد له مقالات تربوية ولغوية رائعة كمقالته التى عنوانها ( إحياء اللغة العربية الصحيحة فى نفوس العامة ) ومقالته التى كتبها إثر تولى الزعيم سعد زغلول نظارة المعارف العمومية وعنوانها ( ناظر المعارف الجديد سعد باشا زغلول وما ينتظره منه القطر ) وقد عرض فى هذه المقالة النفيسة إلى كثير من القضايا التربوية الإصلاحية الهامة فناقشه خير مناقشة ، ومما يلاحظه المرء فى المقالات الكثيرة التى كتبها فى ( الظاهر ) هى بحوثه فى نقد الكتب وتقريظها كبحثه عن ( ابن حزم وكتابه فى الأخلاق ) وبحثه عن كتاب أستاذنا العلامة المصلح بدر الدين النعسانى الحلبى المسمى ( بالتعليم والإرشاد ) وبحثه عن كتاب ( أساس الشرائع الإنكليزية ) الذى ترجمه الأديب السيد نقولا حداد

وغيرها من الكتب المفيدة التي ظهرت في تلك الحقبة وكان لظهورها أثر في المجتمع العربي .

ومما يلحظه المرء عن كتابات الشيخ المغربي في جريدة الظاهر في تلك الحقبة مقالته القيمة عن ( الكلية المصرية ) ومشروع إنشائها ، ويقصد بالكلية نواة الجامعة التي كان الناس يتهامسون عن وجوب إنشائها فقد كتب مقالين بين في الأول منهما ضرورة تكوين هذه الكلية ، وبين في المقال الثاني أن ثمة أناساً يعملون في الخفاء على تثبيط همة القائمين بهذا المشروع الجليل ، ومما يلحق بهذه البحوث مقاله عن التعليم في ( الأزهر وإصلاحه ) فقد أبان الحالة السيئة التي بلغها هذا الجامع العتيد ودعا المصلحين إلى تقويم اعوجاج طريقة التعليم فيه بالأخذ بالأساليب الجديدة التي ستطبق في ( الكلية المصرية ) .

وفي هذه السنة ( ١٩٠٦ ) انتقل الشيخ إلى أسرة الجريدة المصرية الكبرى التي كان يصدرها الشيخ علي يوسف باسم المؤيد ، وفي هذه الجريدة أخذ المغربي يعالج بعض القضايا السياسية بعد أن رأيناه في (جريدة الظاهر ) منصرفاً إلى معالجة القضايا الأدبية أو الاجتماعية أو اللغوية فنراه يكتب مقالا مطولا بعنوان ( العالم الإسلامي في الشهور الأخيرة) حلل فيه أوضاع المسلمين السياسية وما يجب عليهم أن يعملوه ليلحقوا بركب السياسة العالمي ويتخلصوا من ربق الاستعمار الجاثم على صدورهم .

كما ينصرف إلى معالجة شئون الأزهر معالجة جذرية ( كما يقولون ) فيكتب المقالات الطويلة التي يحلل فيها أوضاع الأزهر من إدارية وتدريسية ويسهب في ذلك ويطيل ، ومن أروع هـــذه المقالات أربع عناوينها ( كلمة حق في الأزهر والأزهريين ) و ( أزهري يخطب في الأزهريين ) و ( كلمة إنصاف في الأزهر والأزهريين) و ( نموذج من إصلاح الأزهر ) وقد وفّى الموضوع حقه وقتله درساً وتمحيصاً ، وكيف لا وهو العالم المتحمس المخلص لدينه الذي رأى فساد هذه المؤسسة التعليمية الكبرى وسوء طرائق

تعليمها وتقهقر رجالاتها وكتبها عن متابعة سير ركب العلم الحديث فساءه ذلك وأخذ يتفنن فى بحث طرائق الإصلاح ، ومما يعجبنى له فى هذه الفترة مقالاته التربوية المفيدة التى نشرها فى المؤيد عن ( تربية أطفال المسلمين الدينية ) وكيف يجب أن تكون ، وما هى الكتب التى يجب أن يقرءوها ، وما إلى ذلك من المباحث التربوية المفيدة ، وله فى هذا المبحث سلسلتان من المقالات التعليمية أولاهما بعنوان ( درس فى الدين لابن ثمان سنين ) والثانية عنوانها ( معاتب لا مشاكس مع ناشئة المدارس ) وقد أظهر فى تينكم السلسلتين أنه مربٍ منصف يغار على الشبيبة الإسلامية ، ويحرص على تقويم اعوجاجها ويختار لها أحدث الطرق التهذيبية لتبلغ المستوى الرفيع الذى بلغته شبيبة الأمم المتمدنة من أوربة وأميركة .

هذه صورة خاطفة عن مقالات شيخنا المغربى التى دبجتها يراعته سنة ١٩٠٦م فى جريدتى ( الظاهر ) فالمؤيد . حتى إذا ماجاء عام ١٩٠٧ رأيناه ينصرف إلى تحبير المقالات السياسية والاجتماعية والأدبية فى ( المؤيد ) إلى أن غدا من أركان الصحافة فى مصر ، ويطير صيته وتذيع شهرته فى العالم الإسلامى والعربى ويكاتبه الأحرار والمفكرون فى العالمين يطلبون إليه معالجة بعض القضايا العامة فانبرى لها بقلمه وكله إخلاص وصدق وعلم عميق وأسلوب رائع .

ومن أروع مقالاته السياسية مقالته ( مصر والسياسة ) التى حلل فيها الأوضاع السياسية فى مصر ، وبين أن الزعامة فى العالم العربى والإسلامى يجب أن تكون لمصر لما منحها الله من الثروة ولما لها من الإمكانيات المادية والمعنوية ، وقد وسع هذا البحث فى مقال آخر عنوانه ( مصر والأقطار العربية ) ذكر فيه أن مصر تتوسط الأقطار العربية فى الشرق والغرب ، وأنها لعبت فى الماضى أدواراً هامة فى حياة هذه الأقطار فعليها فى هذه الحقبة التى أشرقت فيها شمس النهضة العربية أن تعود إلى سيرتها الأولى ولا ينسى أن للأقليات المصرية من أقباط ومسيحيين مكانة هامة فى تاريخ البلد قديما

وحديثاً فيكتب فى ذلك مقالا جد نفيس يمتدحهم فيه ويبين الصلات الطيبة التى كانت تربطهم بإخوانهم المسلمين وأنهم كانوا دوماً يداً واحدة ، ويتراءى له من خلال الحجب أن الأجنبى المستعمر ربما حاول استغلال الناحية الدينية وإثارة العصبيات الطائفية فكتب فى ذلك مقالا عميق التفكير بين فيه أن ( التسامح من أعظم قواعد ديننا الحنيف ) وأن المسلمين كانوا دوماً قدوة صالحة لشعوب الأرض فى التسامح ، وأن الفتح العربى كان أفضل الفتوح ، وأن التاريخ العام لم يعرف فاتحاً أرحم من العرب . ويحس الشيخ بالدسائس الأجنبية التى تحاك ضد مصر منذ ذلك الأمد ويرى الحبائل الاستعمارية المستترة بستار العلم تسعى إلى تشكيك المصريين فى عروبتهم ووطنيتهم ، وتعمل على زعزعة إيمان العامة منهم بجدارتهم بالاستقلال ، وأن مصر بلد مستعمر منذ القديم فيكتب فى ذلك مقالين من أروع ما كتب فى سجل القومية والوطنية عنوانهما ( مصر مستقلة بشهادة التاريخ ) عرض فيه إلى استقلال مصر منذ أقدم العصور حتى العصر الحديث وبين فيـــه مواقف مصر الخالدة وما كان لها من آثار على الإنسانية جمعاء .

هذه بعض مقالات شيخنا فى الحقل السياسى الداخلى ، أما مقالاته فى حقل السياسة الخارجية التى تنتظم شئون العالم الإسلامى فنجد بعضها فى مقالاته عن ( مراكش مالها وما عليها ) التى بين فيها سوء الحالة الداخلية التى كانت عليها مراكش قبيل الاحتلال الفرنسى والتى دعا عقلاءها إلى حل الخصومات الداخلية بالحسنى فإن العدو يتربص بهم ، وقد كان للمغربى باع طويل فى محاربة الاستعمار الفرنسى فى شمال أفريقية بصورة عامة ، وبرهان ذلك ما كتبه جلالة السلطان سيدى محمد الخامس ابن يوسف عنه فى كلمته السامية التى وجهها إلى لجنة تأبين المغربى وفيها جاء ( وما نسينا ولن ننسى موقف الشيخ عبد القادر من القضية المغربية فى عهد الأزمات

الأخيرة إذ كان فى الصف الأول من المناضلين عن حق المغرب العربى فى الحرية والكرامة ) .

ومن مقالاته فى السياسة الخارجية مقاله المعنون ( اسبارطة وأميركا ) وقد بحث فيه بحثاً سياسياً رائعاً عن سياسة أميركا القاسية وبين أن هذه طريقة غير حميدة وأن القوة هى التى سوّغت قسوة أميركا .

ومن مقالاته السياسية الهامة مقالته عن بلاد جاوه وما إليها ، فقد فند فيها مزاعم الاستعماريين الهولندين ، وحرض سكان تلك البلاد على الثورة على الظلم والقيام فى وجه المستعمر الذى استطاع بتنظيم شئونه أن يقهر شعباً عظيما عديداً ذا إمكانيات وثروات هائلة كالشعب الأندونوسى .

هذا طرف من المقالات السياسية الهامة التى نجدها للشيخ فى هذه الفترة .

أما مقالاته الإصلاحية فتتجلى فى مقاله عن ( المولد النبوى الشريف والاحتفال به ) ومقاله عن ( الدين وأطفال المصريين ) وقد ناقش فيه الأستاذ إدريس بك راغب الذى استحسن أن لا يعلّم الدين فى المدارس المصرية ليكون المصريون علمانيين ويسود التفاهم بينهم وبين إخوانهم الأقباط وقد عالج الشيخ هذه القضية معالجة حكيمة أثبت فيها أن الدين الإسلامى بتسامحه وسمو مبادئه لا يحول دون الألفة بل هو على العكس مدعاة لتطهير قلوب العامة والصغار من أدران التعصب البغيض .

ومن مقالاته الإصلاحية مقالته فى ( وصف حفلة مشهودة ) نقد فيها جماعة من الصوفية ومشايخ الطرق الذين كانوا يقيمون حلقات الذكر ويدعون الأجانب للتفرج عليهم . وقد رد عليه شيخ مشايخ الصوفية آنئذ وهو السيد البكرى ولكن الرأى العام أيد وجهة نظر المغربى الإصلاحية .

ومن مقالاته الإصلاحية الطريفة التى تبين شدة حرصه على الدفاع عن الإسلام الصحيح مقالته التى تخيل فيها حديثاً جرى بين نزيلين فى مصر أحدهما مسلم يدعى محموداً ، وثانيهما مبشر يزعم أن المصريين لا يصلحون

للاستقلال ، وقد ألقم محمود المبشر حجراً وأبان له أن التبشير ومن ورائه الاستعمار فاشلان فى محاولاتهما الظالمة الرامية إلى الطعن فى كفايات المصريين وغيرهم من الشعوب العربية والمسلمة .

وفى طليعة مقالاته الإصلاحية التى كان لها دوى هائل سلسلة مقالاته التى جعل عنوانها ( حمامة الأزهر ) ومقالته ( فتاة انكليزية تصف الأزهر ) ومقالته ( فتاة انكليزية تصف المحمل ) فقد ضمن هذه السلسلة أفكاراً جريئة فى انتقاد الأزهر وشيوخه وطريقتهم القديمة العقيمة .

ولم يقتصر المغربى فى مقالاته هذه على مباحث السياسة والاجتماع بل كانت له جولات فى ميدان الأدب ظهرت فى نقده لعشرات من الكتب الأدبية واللغوية التى طبعت فى ذلك الوقت ، كما تجلت فى سلسلة أدبية طويلة كتبها بعنوان ( أمالى أدب فى لغة العرب ) وقد ضمنها كثيراً من مقروءاته المنتقاة ، وملاحظاته الأدبية .

هذه جولة مع شيخنا حول أعمدة ( المؤيد ) فى مقالاته التى كتبها عام ١٩٠٧ وقد استمر على طريقته هذه طوال عام ١٩٠٨ حتى إذا ما أعلن الدستور العثمانى وخلع السلطان عبد الحميد رجع إلى الشام وابتدأ عهداً جديداً من حياته .

تعشق المغربى الصحافة ، واتخذها سلوة ومتعة ، وحرفة فانصقل أسلوبه وأشرقت ديباجته ، وذاع صيته فى مصر وسائر أنحاء العالمين الإسلامى والعربى . ولما رجع إلى الشام فى عام ١٩٠٩ استمر يراسل الصحف المصرية الكبيرة كالمؤيد ، واللواء التى كان يصدرها الزعيم مصطفى كامل والشيخ عبد العزيز جاويش وجريدة العلم والمقطم وغيرها من كبريات الصحف المصرية ، كما شرع يكتب الفصول الاصلاحية فى جرائد سورية كجريدة الاتحاد العثمانى البيروتية ، وجريدة طرابلس الشامية ، وجريدة القبس الدمشقية ، وجريدة المفيد البيروتية . ثم رأى أن يشمر عن ساعديه ويحترف

مهنة الصحافة فأصدر فى طرابلس الشام (جريدةالبرهان) فى غرة محرم ١٣٣٠هـ ( ٢٢ كانون الأول / ديسمبر / ١٩١١ ) وقد ترجم فى افتتاحية العدد الأول نفسه وما لاقاه من الويلات والمآسى فى سبيل حرية فكره ، وتعشقه لخدمة القضايا العامة ، واستسهاله كل صعب فى سبيل الإصلاح ، ورفع مستوى أمته قال : إذا مرت ببالى ذكرى أيام طفولتى مر بجانبها ذكرى كراسة صغيرة جمع لى والدى فيها أبياتاً شعرية تتضمن ضوابط نحوية وفقهية ومسائل شتى فى مختلف العلوم اللغوية والدينية . . ثم انتقلت من حجر الأسرة إلى حجر المدرسة وكان مديرها أستاذاً من أكبر أساتذة العلم والدين فى بلادنا السورية . . وفى هذه المدرسة تنبهت إلى أنه ليس كل ما عزى إلى الدين كان صحيحاً بل أن هناك مسائل مدسوسة . . كانت هذه المدرسة ابتدائية فلم يكن يدرس فيها شىء من العلوم العصرية العالية وأذكر أننى رأيت مرة أحد معلمى المدرسة واقفاً فى ساحتها وحوله فئة من التلامذة وبيده مجلة المقتطف فسمعته يشرح لهم الغرض من إنشاء هذه المجلة . . ففهمت إذ ذاك أنه يوجد فى الدنيا علوم اخرى وراء علوم الدين وأنها تؤثر فى ارتقاء البشر . . ثم سافرت من بلدى إلى مدرسة أخرى أرقى من الأولى . . وقد اتفق لى فى هذه المدرسة أيضاً أنى رأيت الأستاذ ناظرها أمسك بيده عدداً من جريدة العروة الوثقى وأخذ يخطب فى تلامذته ويذكر لهم شيئاً من سيرة مؤسسى الجريدة ومبلغهما من العلم والغرض الذى أنشاءا هذه الجريدة من أجله ثم استطرد إلى وصف حالة العالم الإسلامى وما وصل إليه المسلمون من الجهل والوهن والتفرق من حيث أدى هذا جميعه إلى طمع دول أوربا بهم . . ففطنت منذ سمعت هذا القول إلى ما لم أكن فطنت له من قبل وقلت فى نفسى . أنه يجب على المسلمين إذن السعى فى حفظ استقلالهم السياسى وإلا استعبدتهم الأمم . وجعلت من يومئذ أهتم بالمسائل السياسية وأتصفح ما ينشر من الكتب والرسائل فيها ومن ثم تولد فى نفسى الميل لخدمة أمتى من طريق فن الصحافة ، هذا هو السر الذى دفع بالمغربى

فى عالم الصحافة ، فإنه رأى أنها الوسيلة الوحيدة للاصلاح فأخذ يحاول الكتابة ثم أخذ يكتب وينشر ثم عزم على امتهان هذه الحرفة وقد بين لنا سراً آخر دفعه إلى احتراف هـــذه الصناعة فقال : لما جاء دور العمل وأردت ممارسة الأشغال الدنيوية كان سعيي بالطبع موجهاً نحو العمل الذى يلائم الوسط الذى أعيش فيه فيممت دار السعادة بقصد الدخول فى مكتب النواب ثم حال بينى وبين المضى فى الأمر حائل اضطرنى للرجوع إلى وطنى فأبت إليه ولزمت أستاذى الأول وأخذت فى دراسة العلوم . . ثم عينت موظفاً فى المحكمة الشرعية . هذا هو الظاهر من حالتى ولكن هناك باطن يجول فيه سر خفى وتكمن تحت رماده شرارة لا تنطفئ وليست هذه الشرارة سوى حركة النفس فى تدبر أحوالنا الاجتماعية والاهتمام بشئوننا السياسية وترديد الشكوى من موقفنا المنحط عن مواقف بقية الأمم . . وقد أتاح الله لى صديقاً حميا ( هو السيد محمد رشيد رضا ) ، نفسه فى الميل نفسى وهمه فى الحياة همى فكانت صداقته عاملا قوياً فى تكوين ميلى الصحافى ونزوعى نحو الاشتغال فى الشئون العامة وهو اليوم من أكبر رجال الصحافة وأشهر دعاة الإصلاح . . ولم يكن منزعى وفكرى ورأيى الاجتماعى ليخفى على من حولى من أهلى وأناسى فكانوا ينذروننى بيوم شديد من أيام السلطان عبد الحميد . . ولم أنس متصرف طرابلس وقد هالته رزم الأوراق وأضابير الرسائل التى ألقيت بين يديه فجعل ينقّر فيها ويشكو التعب من قراءتها ثم حانت منه التفاتة فرأى دفتراً صغيراً لخصت فيه نتفاً من شئون ممالك أوربا فجعل يقلب يديه ويزوى حاجبيه ويقول موظف فى المحكمة الشرعية ما شأنه وشأن إيطاليا وفرنسا وروسيا . هبنى نسيت هذا كله فهل ترانى أنسى والى بيروت وقد تناول من مجموعة كتبى مجموعة أعداد العروة الوثقى فطفق يقلب صفحاتها وينظر فى تاريخ كتابتها ثم هز رأسه وجمجم كأنه يقول : شاب فى البضع عشرة سنة من سنى حياته يكتب

بقلمه جميع أعداد العروة الوثقى حتى التلغرافيات والوفيات ويعلق عليها هوامش تفسر كلماتها ... إلى السجن إلى السجن ... » .

ويمكث شيخنا المغربى مسجوناً فى دائرة الشرطة ببيروت نحواً من سنة ثم حين يرى نفسه طليقاً يعزم على الرحيل إلى مصر ويصل إليها هارباً لاجئاً ثم ينضم إلى أسرة الجريدة الكبرى ( المؤيد ) فيفرح بذلك فرحاً عظيماً يبينه لنا قوله « ثم بعد حين من الزمان رأيتنى فى إدارة جريدة المؤيد وحولى طائفة من كبار الكتاب المبرزين فى حلبة الإنشاء ، والعاكفين على خدمة الصحافة وقد قضيت ثمة سنتين ونيفاً حتى تأذن الله بانتشال الوطن من مخالب المحن فأسرعت الكرة إليه ونزلت بآمالى عليه » وماأن حل أرض الوطن حتى سكنت نفسه بعد اضطرابها وعزم على خوض معركة الاصلاح فأصدر جريدة ( البرهان ) . ولقد ظلت البرهان مناراً لأولى الفكر ، ومالفاً للكتاب من مستنيرى الشيوخ والشباب ، على نمط زميلتها ( المقتبس ) التى كان يصدرها المرحوم الأستاذ محمد كردعلى فى دمشق إلى أن أعلنت الحرب العالمية الأولى فاضطر إلى وقفها فتوقفت عن الصدور فى ٢٠ آب ( أغسطس ) سنة ١٩١٤ .

وفى خزانة المغربى مجلد ضخم ضم أعداد ( البرهان ) منذ يوم صدورها إلى يوم توقفها ، وقدكنت زرته مرات فحدثنى عن هذه المجموعة وأرانى إياها وأعلمنى بشدة حرصه عليها ، فتصفحتها وقرأت أكثر مقالاتها وبحوثها التى تدل على سعة أفقه وشدة حرصه على خدمة أمته ، وبعده عن الإسفاف والقضايا الخاصة ، أو المنافع الشخصية ، أو المهاترات وقد ذكر فى العدد الأول منها أن ( الصحافة ليست من صنف التجارة التى يتمتع صاحبها ببيع الحبر والورق او ابتياعهما ، بل هى فئة من أصحاب الأفكار المتنورة تجمع على الدوام بين مصالحها الذاتية والمصالح المشتركة مع الوطن وأبنائه وتبذل جهدها بترويج الأمور التى تراها نافعة للمملكة وبيان الوسائل الفعالة لإزالة كل ما تراه مضراً حسب قناعتها الوجدانية ،

وإذا كانت نتائج الخدمات الحسنة التى تؤديها إلى الوطن الجريدة العارفة بوظيفتها حق المعرفة والقادرة على القيام بها أعظم مايتصور فكذلك النتائج المضرة التى تنشأ عنها . والمحافظة على شرف المطبوعات تكون بمقدار درجة ترفع أصحابها عن اتخاذها آلة للأغراض الشخصية ، على أنه متى كانت الغاية المشتركة بيننا وبين المطبوعات سلامة الوطن وسعادته فإن المساعى المختلفة تتحد حالا وانتقادات الجرائد وملاحظتها المنبعثة عن عواطف وطنية محضة وضمن دائرة الأخلاق والآداب هى تجاه الآراء العمومية ، وبنوع خاص تجاهنا نحن معشر المأمورين من قبيل الاستشارة التى تنبه أفكارنا وتسهل علينا التوفيق فى وظائفنا » . هذا ولا ينسى المغربى دوماً نزعته الإسلامية العثمانية فقد كتب وأسهب فى وجوب ( تسكين المملكة وتوطيد دعائم الائتلاف والصفاء بين جميع العناصر العثمانية بلا استثناء ، وبعبارة أخرى بين جميع أبناء هذا الوطن العزيز المنقسمين إلى جماعات تحت أسماء مختلفة ، والعمل على تقوية الروابط الوطنية الجامعة بينهم ) هذه هى عقيدة المغربى الوطنية : إسلامية أولا وعثمانية ثانياً وقد ظل مؤمناً بهذه الفكرة حتى آخر عمره ، أما القومية الضيقة فإنه لم يكن من أنصارها بل كان ممن عملوا على محاربتها ، وظل يسعى جاهداً لإصلاح حالة الامبراطورية العثمانية وعلى هذا دأب طوال إقامته فى مصر فى العصر الحميدى ثم بعد أن رجع إلى طرابلس الشام وأصدر البرهان سار على تلك الخطة فحارب كل دعاة التفرقة الإسلامية — العثمانية وقد رأى رجال الدولة العثمانية منه ذلك فوثقوا بصدقه وإخلاصه فى دعوته فطلبوا إليه أن يشرف هو وجماعة من رجال الفكر العرب المؤمنين بهذه الفكرة على إنشاء معهدين فى قلب العالم العربى لإحياء فكرة الإسلام ومحاربة الأقليميات وتأييد الفكرة الإسلامية — العثمانية ، وكان أول هذين المعهدين فى المدينة المنورة ، وثانيهما فى بيت المقدس باسم كلية صلاح الدين . فقام بعمله هذا بطلب من قائد الفيلق الرابع أحمد جمال باشا أحسن قيام هو وزملاؤه

الثلاثة الشيخ عبد العزيز جاويش ، والأمير شكيب أرسلان والشيخ بدر الدين النعسانى[1] .

---

(١) فيما يلى معلومات موجزة عن الكلية الصلاحية نقلتها من خط المغربى فى دفتر عنوانه ( ترجمة تعليمات كلية صلاح الدين الأيوبى الإسلامية ) سنة ١٣٣٣ (١٩١٥م) .

وقد جاء فى صلب المادة الأولى من تلك التعليمات ما يلى :

تأسست فى القدس الشريف كلية إسلامية باسم كلية صلاح الدين الأيوبى وذلك إحياء لذكرى مدرسته التى كان أنشاها فى حياته وقد ربطت هذه الكلية مباشرة بمقام المشيخة الإسلامية الجليلة وبنظارة الأوقاف والغرض منها تدريس العلوم الشرعية والحقوقية والفنون المختلفة والألسنة المتنوعة وتخريج رجال اخصائيين فى هذه العلو للدفاع عن التعاليم الدينية ويصلحون لاوظائف الشرعية والعلمية وقد عهد بإدارة شئونها إلى مدير ومعاون مدير وناظر درس وغيرهم من المامورين كما عهد بأمر التدريسات إلى أساتذة من أرباب الكفاية والاختصاص .

المادة (٢) مدة التحصيل فى الكلية عشر سنوات سبع منها تالى وثلاث عالى ولسان التعليم فيها اللغة العربية وتقبل كل سنة مائة طالب فى الصف الأول موزعة على الصورة الآتية :

عشرة من لواء القدس .

خمسون من سائر الولايات والألوية العثمانية .

أربعون من أقطار العالم الإسلامى .

وذكرت فى الفصل الرابع المادة (٣٥) شرائط قبول الطلاب فقالت :

يوضح هنا ما جاء فى المادة الثانية بخصوص مقدار ما يقبل من الطلاب من أقطار العالم الإسلامى ، فينتخب من لواء القدس وملحقاته . . أما الطلاب الأربعون الذين يؤخذون من أطراف العالم الإسلامى فتوزيعهم بحسب ما يلى : —

٤ من مصر .

٢ من السودان والحبش .

٢ من طرابلس الغرب وبنغازى .

١ من تونس والجزائر وفاس وجنوبى افريقية .

٣ من جاوه وفيليبين .

٣ من الصين وكاشغر .

٥ من الهند .

٢ من الأفغان .

١ من بلوخستان .

٢ من إيران .

٦ من تركستان ( بخارى ، خيوا ، طاشقند ، سمرقند وما يلى ذلك ) .

٦ من قفقاسيا واستراخان وقازان والقريم وبولونيا .

ثم يلى سبع فصول وتسع وتسعون مادة بتاريخ ٣ جمادى الثانية سنة ١٣٣٣ ... )

ولما أمرت الدولة العثمانية أحمد جمال باشا ناظر البحرية العثمانية وقائد الجيش الرابع العثمانى والقائد الأعلى لسورية وبلاد العرب فى سنة ١٩١٦ م بإصدار جريدة ( الشرق ) للدعاية للدولة العثمانية فى الأقطار الإسلامية جمع فى دمشق نفراً من حملة الأقلام العربية لإصدار تلك الجريدة : وفى طليعتهم السادة :

| | |
|---|---|
| صاحب امتيازها | خليل افندى الأيوبى الأنصارى |
| والمدير المسئول | محمد تاج الدين افندى الحسنى |
| ورئيس الهيئة التحريرية | الأمير شكيب بك أرسلان مبعوث حوران |
| ومدير الهيئة التحريرية | الشيخ عبد القادر افندى المغربى |
| ومدير الإدارة | على حكمت ناهيد بك |

وجُعل لها محررون ومترجمون إخصائيون ومستخدمون كما جعل لها وكلاء ومكاتبون فى دار الخلافة والعواصم الكبرى .. فصدرت يوم الخميس فى ٢٥ جمادى الثانية ١٣٣٤ ( ٢٧ نيسان ١٩١٦ ) .

أما خطتها فقد ذكرت فى المقال الافتتاحى وإليكم خلاصته :

١ ــ إيجاد وحدة كافية بين الأمم والشعوب الإسلامية سواء أكانوا تابعين للحكومة العثمانية أو كانوا تحت إدارة أجنبية ...

٢ ــ الحث على رعاية الطوائف العثمانية الأخرى غير المسلمة ممن جمعتهم والمسلمين الرابطة الشرقية والتابعية العثمانية وتأمين راحتهم ...

٣ ــ الدفاع عن حوض دولتنا العثمانية ومقام الخلافة الإسلامية وبيان ما لها من المآثر والمواقف فى خدمة الإسلام والمسلمين .

٤ ــ إزالة سوء التفاهم الذى يحاول الأعداء دسه بين العناصر العثمانية لأجل أن يستفيدوا من ورائه مطامع ضارة باستقلال المملكة .

٥ — ينشر فى الأحايين مقالات خاصة بسورية وماضيها وما هى الوسائل العاملة على تقدمها من الوجهة الاقتصادية وترقيها .

٦ — وينشر أيضاً أمالى أدبية ممتعة فى ترقية اللغة العربية وتقوية ملكتها فى النفوس وطبع القرائح على ما امتازت به من التراكيب الفصيحة والأساليب العربية .

وقد اشتمل العدد الأول على مقالة افتتاحية طويلة بقلم الأمير شكيب أرسلان بين فيها خطة الجريدة وأتى فيها على ذكر السلطان محمد الخامس (رشاد) وقال عن جمال باشا : « وحسبكم أن فى غرسها يد القائد الكبير والوزير الشهير الذى حقق الآمال بالأعمال وكفانا عن التعريف بقولنا (الجمال) » وتلى ذلك كلمة للشيخ خليل الأيوبى فى فضائل الجهاد ويلى ذلك (درس الجمعة) وهو ملخص مما كان يلقيه مسند الشام وخاتمة محدثيه الأستاذ الشيخ بدر الدين الحسنى فى الجامع الأموى بقلم المغربى وموضوعاته (الصبر ، الفتن ، الجهاد ، النهى عن المنكر) نوجزه فيما يلى :

افتتح أحـــد القراء الدرس بتلاوة آيات من سورة القصص التى منهـا هذه الآية (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك) ثم بدا الأستاذ فحمد الله وأثنى عليه وقال : قال المؤلف (ويعنى به البخارى) سئل رسول الله ﷺ أى الأعمال أفضل فقال : إيمان بالله وجهاد فى سبيله فذكر الأستاذ معنى الإيمان وهل هو التصديق فقط أو التصديق والعمل وشرح مذهب المحدثين والمعتزلة وأهل السنة الذين يقولون إن الإيمان هو التصديق فقط أما الأعمال — وإن أطلق عليها اسم الإيمان — فهى من المكملات ، ثم انتقل الأستاذ إلى مسألة زيادة الإيمـان ونقصه وذكر أقوال الأصوليين فى ذلك ...

وهكذا انتهى القسم الأول من تلخيص كلام الأستاذ الحسنى ، فلما انتقل إلى القسم الثانى منه ذكر فضائل الصبر وقال أن أنواعه ثلاثة (١) صبر المرء

على المصائب فيترك الجزع .  (٢) صبره على الطاعات فيحسن أداءها .
(٣) صبره على الحرمات فيكف نفسه عنها ثم قال : وهذا الأخير أفضل أنواع الصبر وبين السبب فى تفضيل هذا النوع على أخويه وأفاض فى ذكر الأحاديث والآثار الواردة فى فضل الصبر على الأمراض البدنية وعلى فقد الأولاد وأن العبد تكون له الدرجة والمنزلة عند الله فلا يبلغها إلا بالصبر على المصائب فى ماله أو ولده أو نفسه ، وفى حديث ابن مسعود رضى الله عنه (حمّى يومين كفارة ذنوب سنتين) وبين الأستاذ الحكمة فى تعيين السنتين فقال لأن أثر ضعف الحمى فى الجسم يبقى سنتين ، وذكر مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه جاءت امرأة إلى النبى ﷺ وهى تحمل ابناً لها فقالت يا رسول الله دفنت ثلاث أولاد وإنى أخاف على ابنى هذا ، فقال لها : دفنت ثلاث أولاد ؟

قالت : نعم .

فقال : لقد احتظرت بحِظار شديد من النار .

أقول : الحظار بالكسر ويفتح كل شيء حجز بين شيئين ، واحتظر به احتمى . أى لقد تحصنت بحصن شديد من النار .

قال الأستاذ : وعند الإمام أحمد فى مسنده من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه (ما من مسلمين — يعنى أبوين — يموت لهما ثلاثة من الأولاد إلا أدخلهما الله الجنة برحمته ، قالوا : يا رسول الله واثنان ، قال : واثنان قالوا : وواحد ، قال : وواحد ، والذى نفسى بيده إن السقط ليجر أمه بسرره إلى الجنة .

أقول : السقط مثلث السين الولد يسقط من بطن أمه لغير تمام ، والسرر بفتحتين ما تقطعه القابلة من سرة المولود ، وهذا كناية عن أن السقط يكون سبباً فى دخول أمه الجنة ... وهكذا ينهى المغربى تلخيص القسم الثانى من كلام الأستاذ الحسنى .

ثم يذكر فى عدد يوم السبت ٢٧ جمادى الثانية سنة ١٣٣٤ (٢٩ نيسان ١٩١٦م) بقية كلام الشيخ وشرح الغامض منه ويكتب فى الخاتمة ما يلى : حين بلغت هذا الموضع شعرت نفسى بشىء من الملل وخدر الأصابع فألقيت القلم من يدى وكففت عن الكتابة ، أما الأستاذ فبقى يواصل الكلام من دون تلعثم ولا إحجام ، ومدة درسه عادة ثلاث ساعات يحدر فيها الأستاذ فيها المسائل حدراً لا يتخلله سكوت ولا يقاطعه من الحاضرين سؤال وكل المسائل التى يلقيها تكون تعليقاً على ( الحديث ) الذى كان قد افتتح به الدرس وهو يجعل من تلك المسائل تناسباً دقيق اللحام ويفرغها بأسلوب حسن السبك والنظام ، ولا يذكر حديثاً ما لم يرو سنده ويعين مأخذه فستمع درسه يعجب من ذلك الاستحضار كما يعجب من فصاحة ألفاظه وصحة تراكيبه حتى لو أمكن كتابة ما يمليه الأستاذ فى درس واحد وطبع ذلك ونشر بين الناس كان لهم منه كتاب يبلغ حجمه عشرة أجزاء من القرآن وقد تضمن أبحاثاً جمة فى أنواع العلوم الإسلامية .

ونحن فى المسائل التى لخصناها من درس الأستاذ لقراء ( الشرق ) لم نلخص إلا قليلا من كثير ووشلا من غدير وما يجده القارىء فيه من خطل أو خطاء أو قول هراء فهو منا وتبعته راجعة إلينا والأستاذ برىء منه وعيبه طاهر عنه ... »

وقد استمر المغربى يحرر فى جريدة ( الشرق ) المباحث الأدبية واللغوية والإصلاحية ، وبعض المقالات السياسية ، طوال فترة الحرب العالمية الأولى ، فلما وضعت الحرب أوزارها ، ودخلت الجيوش الأجنبية إلى دمشق انزوى فى بيته منصرفاً إلى التأليف ، وكتابة مقالات العلم واللغة والأدب .

ثم عُهد إليه ، حين أسس الملك فيصل الأول الجامعة السورية

بدمشق ، أن يصحح لغة كثيرمن التآليف العلمية فيها ، ولاسيما فى كتب كليتى الطب والحقوق ، فأصلح لغتها ، وأدخل فيها ألفاظا جديدة ، ودرّس اللغة العربية وفقهها للطلاب .

وكان إلى جانب تدريسه ، وتصحيحه للكتب ، يزود مجمعى دمشق والقاهرة ، ثم مجمع بغداد ، بالمقالات والبحوث والتعليقات وقد أهمل الكتابة فى الصحف اليومية — هذه الفترة من عمره — إهمالا تاماً لاعتقاده بأنه قد أدى قسطه نحو أمته فى هذا الحقل .

---

# المغربى الفقيه

رأينا أن أسرة المغربى أسرة قضاء وفتيا منذ عهد بعيد فقد تقلد جده الأعلى يوسف درغوث (طورغود)، وكان من كبار علماء الحنفية فى تونس ، ومن أبناء طورغود باشا أمير البحر العثمانى ودفين طرابلس الغرب ، منصبَ مفتى الحنفية فى تونس وتسلسل ذلك المنصب السامى فى إعقابه من بعده يتوارثونه ولدا عن والد . فقد قتل المفتى الشيخ يوسف فى ثورة عسكرية سنة ١٠٨٨ هـ وسمى ولده عبد الكبير مفتيا للحنيفة بعده . ثم عزل مرة وأعيد بعدها إلى أن مات فخلفه ولده يوسف وظل فى الافتاء طوال حياته ثم خلفه ابنه محمد . ولما حصل الانقلاب الكبير فى الدولة التونسية وأنتقل الملك من أبناء الباى على بن محمد إلى أبناء الباى حسين بن على قبل سنة ١١٧٠ عزل محمد درغوث من منصب الافتاء وسمى ابن بيرم مفتيا للحنفية وهكذا انتقل هذا المنصب الإسلامى السامى من الأسرة الدرغوثية إلى الأسرة البيرمية بعد أن تقلب أبناؤها فيه أكثر من قرن ، ورأى رجالات الأسرة الدرغوثية أن العهد الجديد قد ثقل عليهم فاضطروا إلى الهجرة إلى الشرق وكان الشيخ محمد درغوث أحد أفراد الأسرة زار الشرق ومرّ بمدينة طرابلس الشام فاتخذها سكنا وعرف أهلها فضله فاحبوه والتفوا حوله يفيدون من عمله وبركاته ، وأصبح لقب الأسرة ( المغربى ) بعد أن كان ( درغوث ) واستوطن بعض أفرار الأسرة الدرغوثية ، محمد أحفاد الشيخ محمد الكبير، مصر واتخذوا ـ دمياط ـ مقرا لهم ونبغ فيهم الشيخ عبد القادر مفتى دمياط حوالى سنة ١١٥٠ هـ . وظل الشيخ محمد فى طرابلس حتى توفاه الله وسار ابناؤه وأحفاده على سيرته وتقلد حفيده عبد الرحمن الجد الأعلى للمغربى منصب الافتاء فى طرابلس الشام واللاذقية خمسا واربعين سنة وقد ترجمه المرادى فى سلك الدرر وقال : إن وفاته كانت سنة ١٢١١ هـ وإنه كان من رجال الدين

الورعين ، كما تولى حفيده الشيخ أبو الهدى عبد القادر قضاء طرابلس وقد كان تلقى العلم فى الأزهر عن الدسوقى والطحطاوى والمنوفى والشنوانى وتلقى الطريقة الخلوتية عن الشيخ محمد بن عبد الكريم السقاط المتوفى ١٢٠٩هـ وبقى فى قضاء طرابلس حتى دخول المصريين إليها ، وتسلسلت النزعة العلمية الإسلامية فى أبناء الشيخ عبد الرحمن جد الفقيد الأعلى وكان الشيخ مصطفى والد الفقيد من رجال الدين الأفاضل فى طرابلس وقد حدثتكم بطرف عن حياته وآثاره ووظائفه الدينية التى تقلدها .

أما ابنه عبد القادر المغربى فقد نشأ نشأة دينية ـ كما أسلفنا ـ وأراد والده أن يجعله فقيها محافظا يقف عند النصوص الواردة فى كتب الفقه الحنفى ويسلم بها ولا يناقشها ـ لأنه ليس فى الامكان أبدع مما كان ـ ولأن مابلغت إليه نصوص فقهائنا المجتهدين هو الأوج . وإن نصوصهم لامجال للاجتهاد عندها وقد قدمنا أقوال المغربى فى ذلك ونريد أن نبين تحطيم المغربى لتلك السدود بعد أن اتصل بالمصلح الأفغانى والمفتى محمد عبده فإنه صار يقول « يحاول قوم من الجامدين أن يأخذوا أولئك المتنورين بالتقليد الأعمى وأن يحملوهم على الاذعان والتصديق بمجرد نقل النصوص وسرد أقوال المتفقهين ولكن محاولة هذا منهم هى مقاومة الطبيعة والنجاح فى أمر مقاومتها أمر مستحيل .

عقل حر فى نفسه ، حر فى تربيته ، حر فى حكومته ، حر فى عصره ، حر فى الوسط الذى يعيش فيه ـ تكلفه أن يقلد غيره تقليدا أعمى ؟ اللهم إن هذا تكليف ما لا يطاق[١] .

فهو ، كما تسمعون ، يرى أنه من الواجب على الفرد مناقشة أقوال المتفقهين وعدم التسليم بنصوصهم وتقليدهم تقليد الجاهل دون دراسة حججهم وأدلتهم . ويرى إن أولى خطى الإصلاح الدينى هى فى التربية والتعليم فإذا

---

(١) البينات ١/١١ .

ماربى الأطفال المسلمون تربية إسلامية صحيحة فاز المسلمون وسلكوا الجادة المستقيمة التى تؤدى إلى رقيهم وتقدمهم ، وقد أكثر المغربى من الكتابة فى هذا الأمر منذ فجر حياته إلى أن توفاه الله ، وضمّن قسما من آرائه فى الإصلاح والفقه الإسلامى « كتاب البينات » وإليكم ما قاله فى المقال الأول الذى افتتح به الجزء الأول من هذا الكتاب بعنوان « الإصلاح الإسلامى »[1] وقد كان كتبه سنة ١٩٠٩ م ( ١٣٢٧ هـ ) ( ... إن لم يرد رجال الدين العناية بأمر الإصلاح الإسلامى فلا يحسبوا أنهم بذلك يعوقون حركة الانقلاب العام فى أمم الإسلام ، أو يعوقون نهوض هذه الأمم وعروجها فى معارج الحضارة والعمران « كلا » إذ ان القوة المادية أصبحت اليوم بيد رجال السياسة ، وفى طاقة هؤلاء أن يذللوا بها كل صعوبة تعترض سيرهم مهما كان نوعها .

ولكن رجال الدين يرتابون فى أن الإسلام محتاج إلى إصلاح ، وكثيرون منهم يرون أن الكلام فى إصلاحه لغو باطل إذ أن الدين الإسلامى لم يك بالفاسد فى يوم من الأيام حتى نفكر فى إصلاحه أو نبحث عن طريقه لأجل إصلاحه ...

ثم نسلك فى الكلام على وجوب الإصلاح من طريق آخر فنقول إن المسلمين بتركهم العمل بدينهم والسعى فى أصلاحه أصبحوا كأنهم غير مسلمين ، وإذا سمع الشيوخ منا هذا القول استبشعوه وردوه علينا أقبح رد . ولم يطيقوا أن يسمعوا القول بأن المسلمين اليوم غيرُ مسلمين .

حقا الأمر جلل ، وإن التصريح به بشع تأبى النفس سماعه ، دع عنك قبوله ، ولكننا نرانا مضطرين إلى الجهر به ، وإقناع معارضينا فيه ، لنحملهم بذلك على النظر والتفكير ونبعث فى نفوسهم الشعور بالحاجة إلى الإصلاح ولزوم السعى فيه ..

---

(١) البينات ١/٢ — ١٧ .

ومحض القول إن أى نوع من الإصلاح لايتم إلا بسعى الذين يعنيهم أمره ، وإصلاحنا الإسلامى إنما يعنى علماء الدين فهم المكلفون به ، المخاطبون شرعا بالعمل على تحصيله ، وليس العمل منهم سوى الدعوة إليه بخطبهم وكتاباتهم وتآليفهم ، حتى إذا اقتنع بذلك جمهور الأمة ومعظم أفرادها هبوا هبة واحدة فاكتتبوا لمدارس يشيدونها ونشرات يوزعونها ومؤتمرات يعقدونها عن كل ما فيه تحصيل أمر هذا الإصلاح وتحقيق أمره . وعماد الإصلاح بوجه عام ، أو أصل الأصول فى الإصلاح ، إنما هو التربية والتعليم الإسلاميان ، أو يقال هو (المدرسة الإسلامية) هذا هو أصل الأصول أما بقية الأصول والأركان فتأتى على ذكرها هنا موجزة بصفة فهرست يجمعها ...[1]

هذه هى بإيجاز نظرة المغربى فى الإصلاح الإسلامى وتلك هى آراؤه فى رجال الدين ومسلمى عصره ، وأما ما يجب على الفقيه - فى رأيه - أن يعمله فنترك الحديث عنه منفصلا إلى محاضرتنا عن ( المغربى المصلح ) . ولا ريب فى أن هذه الآراء الجريئة التى اندفع المغربى الشاب إلى إعلانها قد ألبت عليه جمهور العامة المتعصبين لرجال الدين فاتهموه بالإلحاد والزندقة والمروق ، كما اتهموا من قبل أشياخه جمالا ومحمدا وقد استمرت هذه الحملة العنيفة على المغربى طوال حياته وإن كانت فى سنيه الأولى أعنف وأشد منها فى سنواته الأخيرة حينما انصرف إلى الدراسات اللغوية والمباحث الأدبية .

وقد كانت أعنف فترة فى حياته خلال سنتى ١٩٠٦ — ١٩١١م فقد قام فيما بين هذين العهدين بحملة على منكرى تعلم المرأة ودعا إلى سفورها الشرعى وتعليمها وله فى ذلك محاضرات ورسائل ومقالات - ولخصومه من رجال الدين نقود عنيفة وحملات قاسية عليه . فقد نشر أولى مقالاته فى هذا الموضوع الخطير آنئذ فى جريدة الظاهر المصرية - التى كان يصدرها المحامى الأستاذ محمد بك أبو شادى والد الدكتور زكى أبو شادى - بتاريخ ١١ أكتوبر

---

(١) البينات ١/ ١٥ :

( تشرين الأول سنة ١٩٠٦ ( ١٣٢٤ هـ ) بتوقيع ( م . ع ) قال فيه « كنت بالأمس أتجول فى شوارع القاهرة وأدخل حوانيتها ومخازنها وانتاب متنزهاتها وحدائقها فأجد من تبرج النساء وتبذلهن ومحادثتهن للرجال وعدم التزامهن حدود الشرع ما كان يذكرنى بما كتبه العالم الفاضل قاسم بك أمين فى كتابه ( تحرير المرأة ) و( المرأة الجديدة ) ، من أن هذا الحجاب الذى عليه عامة نساء المسلمين ليس بالحجاب الشرعى فلا ينبغى الاحتفاظ به ، وإنما علينا الرجوع إلى ماقرره الشرع فى ذلك لكنه حفظه الله[1] كان يصور الحجاب الشرعى بما عليه الآن نساء أوربا وأميركا ، وقد وصف من أحوالهن ومخالطتهن للرجال ما يشعر باستحسانه له وتمنيه لنسائنا مثله حتى هاج عليه الشيوخ والمعتصبون ، مع أن الحجاب الشرعى هو واسطة بين الحالتين ، ليس فيه التبذل والتعرض لمثارات الفجور وماهى عليه الحالة فى نساء الغرب ، ولا يحول بين المرأة وبين رقيها وإعدادها لأن تكون زوجا وأما ومدبرة منزل ، كما هى عليه حالة نسائنا لهذا العهد . ومهما يكن فإن المؤلف (الأمين) إنما يرمى إلى نشل المرأة المسلمة من هوة الجهل التى سقطت فيها منذ قرون ... كنت أفكر فى هذا الموضوع . واذكر فى نفسى ما كان كتبه قاسم بك وفصله تفصيلا شافيا ، وإذا بى اقرأ من جريدة الظاهر نقلا عن جريدة ( الإسكندرية ) مقالا طويلا للدوما إليه ( أى قاسم أمين ) يقول فيه أنه عدل عن رأيه فى مسألة الحجاب وسحب كلامه فى دعوة الأمة إلى تحرير المرأة فرجعت وخفت أن يكون أدرك ذلك الفاضل شىء من الخور وضعف العزيمة . .

فأخذ يعتذر للشيوخ والمتعصبين ، ويتنصل مما كانوا اتهموه به من قبل ، وقلت : إن كان شأنه كذلك فيكون من جملة مصاب الأمة برجالها وقادتها الذين نرجو الخير من قبلهم ... لكن لم ألبث فى ثانى يوم حتى قرأت ما كتبه حضرته فى إنكار ذلك المقال والبراءة منه فسررت ورأيت كل ذلك فرصة

---

(١) توفى قاسم أمين فى سنة ١٩٠٨ .

حسنة اغتنمها فى رجاء الفاضل قاسم بك أن يتحفنا بكتاب فى المرأة يكون ثالث القمرين وشاهداً لصاحبه بالحسنيين[1] .

واستمر المغربى يدعوا إلى تحرير المرأة ويكتب البحوث العديدة فى ذلك وكان من أشهر تلك المقالات كلمة كان لها دوى هائل قال فيها : —

« ألزم الدين الإسلامى المرأة بالعلم وفرض طلبه وتحصيله عليها ، كما أعطاها من جهة ثانية حق التملك والاستقلال وحرية التصرف فيما تملك فإذا شاءت بيعه أو هبته أو وقفه أو أى نوع من أنواع التصرف فيه جاز لها ذلك من دون أن يكون لزوجها أو أبيها أو أى كان حق فى معارضتها ... يقولون إن الدين الإسلامى كما شرع ذلك ألزم المراة بالحجاب والهدوء فى المنزل وعدم الخروج منه إلا لزيارة والديها ثم لزيارة القبر وعدم مخالطة أحد والحديث مع أحد وإذا اضطرت إلى الكلام مع أجنبى فتغير صوتها الرخيم بأن تضع أصابعها فى حلقها وتخور كما يخور الثور .

المرأة التى لا تعرف فى حياتها سوى محارمها ولا تخرج من بيتها إلا إلى قبرها تبقى بالضرورة جاهلة فلا تقدر أن تتعلم ما يلزمها علمه بالوجه العام ولا ما يلزمها أن تتعلمه لصيانة أملاكها والذود عن حقوقها من وجه أخص . حجابها المصطلح عليه يؤدى بها إلى الجهالة وإلى التجرد من حق التملك وحرية التصرف فيما تملكه ...

هذا تناقض ظاهر ، وتضارب بين أصول الإسلام ، وقواعده الكبرى الاجتماعية لا يمكن معه أن تنهض أمة ويرتقى شعب .. لا نعلم كيف نوفق بين الأمرين ونطبق هذين الأصلين ، هل نقول إن الأصل فى الإسلام هو إعطاء الحرية والاستقلال للمرأة وإنها مكلفة بتحصيل العلم عملا .. أو نقول بالعكس إن الحجاب وقصر المرأة فى دائرة ضيقة من حياتها المعاشية والعلمية والأدبية هو الأصل الشرعى والقاعدة الأساسية وإن علمها وتعليمها

(١) انظر كتاب « كلمتا الأستاذ المغربى فى السفور والحجاب » ص ٣٧ — ٣٩ .

وحريتها واستقلالها وتصرفها كل ذلك دخيل فى تعليم الدين ومدسوس على الشريعة ...[١] » إلى أن يقول مؤيدا رأيه فى سفور المرأة وحريتها .

« ... وهذا التضارب أمر مستحيل يجب علينا أن تنفيه بكل قوتنا ، وإذا تعسر علينا الجمع بين الأصلين واضطررنا إلى النظر فى أمرهما والبحث عن سرهما . ولا أرى مجالا للريب أو الشك فى مشروعية الأصل الأولى القائل بأن المرأة مخلوق بشرى ، وإنها إنسان ذو قوى ومواهب مثل الرجل، وإن عليها أن تتعلم ولها الحق أن تكون حرة مستقلة مطلقة التصرف . ممتعة بسائر حقوقها ولا ريب فى هذا وإنما الريب فى الأصل الثانى وهو أن تكون محجبة بهذا النوع من الحجاب المعروف[٢] » .

وما أن نشر المغربى مقاله هذا حتى ثارت عليه الحملات فى مصر والشام وأخذت الجرائد تهاجمه وتتهمه بالمروق والكفر فانبرى لكتابها يصاولهم وكتبت فى ذلك عدة مقالات كان من اجرأها مقالته التى نشرها فى جريدة العلم المصرى بتاريخ ١٨ يناير ( كانون الثانى ١٩١١ ونقلتها عنها مجلة الهداية للشيخ عبد العزيز جاويش فى تلك السنة ، وتناقلتها جريدة « المفيد » البيروتية « والمقتبس » الدمشقية وفيها « شرع الإسلام فى جملة ما شرع من الأحكام أدبا خاصا بالمرأة متعلقا بموقفها إزاء الرجل الأجنبى عنها ، وقد تنوع هذا الأدب وتطور وسمى حجابا . والغرض منه صيانة كرامة النساء وتوفير حرمة الأعراض من حيث يؤدى ذلك إلى دفع الشرور ... ولكن ما هو حدُّ الحجاب وكيفيته وشكله ؟ لم يحدد الإسلام له صورة خاصة ولا كيفية يتبعها وإنما أشار إلى طرائق تساعده على الوصول إلى الغرض المقصود منه ويمكن إرجاع هذه الطرائق إلى ثلاثة أمور : —

( ١ ) على المرأة أن تدع التبرج أمام الرجل الأجنبى .

---

(١) انظر رسالة « كلمتا الأستاذ المغربى فى السفور والحجاب » ص ١ — ١١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣ .

(٢) عليها أن لا تخلو برجل أجنبى .

(٣) عليها أن لا تسافر من دون أن يكون معها أحد محارمها .

... إن الحجاب الكثيف المعروف فى الأمصار الإسلامية اليوم لم يكن مما شرعه الإسلام وإنما حدث بحدوث ضعف الوازع الدينى فى النفوس .

... وطبيعة الإسلام هى أنه دين عام ملائم لمصلحة البشر قابل لتطبيق تعاليمه عليهم جميعا مهما اختلفت عناصرهم ومواطنهم وأزمانهم .. فالحجاب الذى يطبقه المجموع البشرى هو ما قررناه فى مقالنا السالف من ترك التبرج والخلوة بالأجنبى والسفر مع غير محرم ولا مايحدث ريبة أو يمس الشرف والكرامة .

... وإذا كان النساء قوة كان الاجتماع الإنسانى مضطرا للانتفاع بهن ، وبحسب اختلاف أطوار هذا الاجتماع تختلف طرائق الانتفاع فعمران الأمصار الإسلامية أحاطت به مؤثرات اجتماعية جعلته يكتفى فى الانتفاع من قوة النساء بالفراش والرضاع والطبخ ، أمامعيشة الاسكيموا والزولوس وأهل القرى — والبوادى ، وعمران أمم أوربا وأميركا كل هؤلاء لايمكنهم قط أن يفرطوا بقوة النساء فيلففوهن بالآزار ويلزمهن بالقرار ، ويقولون لهم أنتن ضعاف لدن وربين واطبخن ولستن مكلفات بغير ذلك ... ومن تفطن لحالة البشر فى سذاجتهم القديمة الإبتدائية وتأثيرها فى المجتمعين الابتدائى البدوى والمدنى وحالتهم فى حضارتهم الأوربية الجديدة عرف مبلغ مساعدة المرأة فى الحالتين وتأثيرها فى المجتمعين الابتدائى البدوى والمدنى ... [١] »

هذا هو المغربى الفقيه المجدد فى الدين الداعى إلى التفتيش عن جواهر الدين الإسلامى ولباب دعوته ، الساعى إلى تطهيره من الادران التى علقت به طوال قرون الجهل الثلاثة الأخيرة .

وكان المغربى إلى تلك النزعة التجديدية داعيا إلى فتح باب ( الاجتهاد )

(١) كلمتنا الأستاذ المغربى فى السفور والحجاب ص ١٤ — ٣٠ .

الديني حاضًّا على الاهتمام بأمره بين طبقات المثقفين ، داعيا إلى التآلف بين المذاهب والفرق الإسلامية ، وله في ذلك مقالات ومحاضرات ، ومن خير ما كتب في هذا مقالتان أحدهما عن [ الحرية العلمية في الإسلام ][1] والثانية عنوانها [ لنجتهد في إيجاد المجتهد[2] ] لأن الإسلام يفرض ذلك ويحض عليه ، بل « يبيح لأي كان أن يقول الحقيقة التي يعتقدها ، ويصرح بالعلم الذي يعلمه بشرط الوثوق منه [ ولا تَقْفُ ما لَيسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ ] وبشرط الإخلاص فيه [ يَقُولُونَ بأفوَاهِهِمْ ما لَيْسَ في قُلُوبِهِمْ ] أمّا فيما عدا ذلك فمنهيّ عنه أشد النهيّ ، لأنه مجازفة في العلم ، وفوضى تضر ولا تنفع .

وقد بلغت الحرية الفكرية في الأمة الإسلامية ، في صدرها الأول حدّاً لم تبلغه في أمة من الأمم ، وقد كان العلماء من رجال النِّحل ، والمذاهب الإسلامية المختلفة ، يقصد كل واحد منهم في جانب من جوانب مسجد البصرة أو الكوفة ، ويجلس إليه من يريد الاستفادة منه ، والتلقي عنه ، فيجهر العالم برأيه ، وتأييد نحلته ، والدفاع عن مذهبه ، دون ما وجل أو خشية ..[3] »

هكذا يريد المغربي أن يكون علماء عصره وفقهاؤه ، كما يريد أن يكون الدين وأموره موضع مناقشة وبحث علميين صحيحين ، يعتمد فيها على الكتاب والسنة والعقل الصحيح .

---

(١) نشرت في كتاب ( البينات ) ١/١٣٢ .
(٢) نشرت في كتاب ( البينات ) ٢/٤٧ .
(٣) راجع كتاب البينات ١/١٣٥ و ٢/٤٧ — ٥٥ .

# المغربي المؤلف

كان للأستاذ المغربي خلق الأسلاف الصالحين ، ودؤوبهم على التحصيل وانصرافهم إلى التحقيق والتأليف ، وقد خلف لنا آثاراً جليلة من مؤلفاته ومحاضراته ومقالاته ، فقد كان له قلم سيال وفكر جوال عالج بهما قضايا الدين واللغة والأدب معالجة اللقن الذكى المجتهد الذى لا يألو فى خدمة دينه ولغته وآدابها وله فى هذه الحقول مؤلفات عديدة طبع منها .

١ ــ كتاب ( الاشتقاق والتعريب ) طبع فى سنة ١٩٠٨ م ثم أعادت لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعه فى سنة ١٩٤٧ م .

٢ ــ ( كلمتان فى السفور والحجاب ) طبع سنة ١٩١٠ ــ ١٩١١ م .

٣ ــ كتاب ( البينات ) فى مجلدين طبع سنة ١٣٤٣ ــ ١٣٤٤ .

٤ ــ كتاب ( الأخلاق والواجبات ) طبع سنة ١٩٢٠ ثم سنة ١٩٢٩ م ــ ١٣٤٧ هـ .

٥ ــ محاضرات عن ( محمد صلى الله عليه وسلم والمرأة . مع محاضرات فى موضوعات أخرى ) طبعت سنة ١٣٤٧ هـ .

٦ ــ كتاب ( جمال الدين الأفغانى ــ ذكريات وأحاديث ) نشر فى سلسلة « اقرأ » سنة ١٩٤٨ .

٧ ــ ( مناظرة أدبية لغوية ) بين المغربى والبستانى والكرملى نشرها الأستاذ حسام الدين القدسى سنة ١٣٥٥ .

٨ ــ تائية عامر بن عامر البصرى بشرح المغربى وتحقيقه نشرها المعهد الفرنسى بدمشق ١٩٤٨ .

٩ ــ تفسير جزء تبارك طبعته الحكومة المصرية فى المطبعة الأميرية ١٣٦٨ ــ ١٩٤٩ .

١٠ ــ كتاب على هامش التفسير طبعته مكتبة الآداب المصرية ١٣٦٨ ــ ١٩٤٩ م .

١١ ــ كتيب ( عثرات اللسان ) طبعه المجمع العلمى العربى بدمشق ١٣٦١ ــ ١٩٤٩ .

١٢ ــ تحقيق كتاب ( التنبيه على غلط الجاهل والنبيه ) نشره فى مجلة المجمع العلمى ٦ / ٤٣ وما بعدها .

أما مؤلفاته التى ما تزال مخطوطة فهى : ــ

١٣ ــ مجموعة مقالاته وأبحاثه التى نشرها فى الصحف والمجلات . وقد صنفها تصنيفاً كاملا وأعدها للطبع فى مجلدات عديدة تبلغ العشرة .

١٤ ــ مجموعة محاضراته التى لم تنشر وهى فى مجلد واحد ضخم .

١٥ ــ أحسن القصص والتاريخ النبوى المقدس .

١٦ ــ المعجم اللغوى .

١٧ ــ أقرب الطرائق إلى كنز الدقائق فى الفقه الحنفى .

١٨ ــ العقائد الإسلامية .

١٩ ــ شرح مقصورة ابن دريد .

٢٠ ــ طائفة من الأشعار فى وصف الصحارى والقفار .

٢١ ــ تاريخ آداب اللغة العربية .

٢٢ ــ فنون البلاغة .

٢٣ ــ التعليم بالمراسلة .

٢٤ ــ النُّغَب أو نوادر العلوم وفرائد الأدب .

٢٥ – النجم الآفل .

هذا ثبت كتبه التى خلّفهما وهى كما ترون متنوعة النواحى إلا أنها تدور فى فلك الدين واللغة والأدب والاجتماع ، ويجدر بنا ههنا أن نشير إلى كتاب « النجم الآفل » وهو ترجمة للرواية الاجتماعية المشهورة بغادة الكاميليا التى ألفها اسكندر دوماس ، فقد كتب المغربى عن هذه الرواية بحثاً فى مجلة الحديث الحلبية ١٩٢٩ قال فيه إنه اشترك هو ومواطنه الطرابلسى السيد أميل شبطينى فى ترجمتها ، وأنهما أتما الترجمة فى أربعة أشهر وأنهما تصرفا فيها بعض التصرف فكانا يحذفان ما لايتفق وذوقهما مراعين فى ذلك أخلاقنا وأساليب تفكيرنا . وبعد أن أتما ترجمتها أعاد المغربى قراءتها لحرر عبارتها وأضاف إليها من الأشعار والأدوار الغنائية ما رآه لازماً فى بعض فصولها حتى إذا فرغت سماها ( النجم الآفل ) إشارة إلى أفول نجم مرجريت بطلة الرواية وذهب بعد إتمام الترجمة والتصنيف إلى زيارة الشيخ سلامة حجازى الممثل المصرى المشهور آنئذ فتلاها عليه فى عدة جلسات وأعجب بها الشيخ سلامة فمثلها على مسرحه ليلة الأحد ٣ تشرين الأول ( أكتوبر ) ١٩٠٨ وكان الإقبال عليها عظيما ... ويظهر أن المغربى لم يكن يرغب فى أن يعرف الناس أنه قد ترجم هذه الرواية وأنه نظم أغانيها ووضع أدوارها الغنائية فلذلك لم يوافق زميله فى ترجمتها السيد أميل على طبعها لبعض العبارات المتعلقة بشخصه وما تزال الرواية محفوظة فى خزانة المغربى ، ويظهر أنه كان لايحب أن يعرف عنه أنه اهتم بالروايات والمسرحيات لما فى ذلك من الغض من سمعته ومكانته الدينية .

ولابد لنا من الوقوف أمام بعض كتبه المطبوعة وتحليلها لنتبين طريقته فى التأليف ، وأسلوبه ، وأهدافه ، وما إفادته العربية من جهوده التى بذلها فى تآليفه ، وسنخص البحث بالكتب الآتية :

## ١ - الاشتقاق والتعريب :

هو كتاب يبحث فيما يعرض للغة العربية من تكاثر كلماتها بواسطتى الاشتقاق والتعريب ، وأن هذا الأخير طبيعى فى لغتنا وفى غيرها من اللغات وأن استعمال المعرب لا يحط من قدر فصاحة الكلام وقد أثبت ذلك وأكثر من التدليل عليه والاستشهاد على صحته بأقوال أئمة ورجال مشهود لهم .

وقد قال فى مطلع الطبعة الثانية ١٩٤٧ من هذا الكتاب مبيناً أهدافه « ... ولقد طُبع كتابى ( الاشتقاق — والتعريب ) طبعته الأولى فى مصر سنة ١٩٠٨ فيكون قد مضى عليه زهاء أربعين سنة وهو يؤدى رسالته وينشر دعوته إلى قبول التعريب وإثبات أنه قانون طبيعى فى كل لغة من لغات البشر ، لا اللغة العربية وحدها ، وأن على أبناء هذه اللغة أن يستفيدوا منه فى تنمية لغتهم وتوسيع دائرة التخاطب بها[1] » ، فالمغربى يرى أن التعريب والاشتقاق طبيعيان فى اللغة وأنهما فصيحان كالكلمات الأصلية وقد كان لهذا الرأى الجرىء الذى قال به المغربى قبل نصف قرن صداه البعيد على الرغم من قوة خصومه القائلين بوجوب تنقية اللغة من المفردات المعربة الدخيلة وقصر الاشتقاق على ما كان سار عليه القدماء فإن الألفاظ الأعجمية إذا ما دخلت اللغة وصقلها اللسان العربى استعربت وأصبحت كأنها من المفردات الأصلية ، والمغربى بهذا الرأى يريد أن تبقى اللغة العربية متطورة مع الزمن تطوراً سليماً صحيحاً تأخذ من اللغات الحية مما تزيد به مفرداتها زيادة تجارى بها سير ركب العلم والحضارة . وقد كانت كلمة المغربى هذه حافزاً لأهل الحل والعقد يحفزهم إلى إيجاد مؤسسات ثقافية أو مجامع علمية تقوم بهذا العمل قياماً صحيحاً يبعد الفوضى عن اللغة ،

---

(١) مقدمة الطبعة الثانية ص ١ .

ويوقف سيل الهجوم على بعض الكتاب الذين يستعملون بعض الكلمات المعربة والدخيلة فى كتبهم ومقالاتهم ومحاضراتهم فيحتدم الجدال بينهم وبين المحافظين وقد كان الشيخ المغربى فى مقالاته التى كتبها فى جريدة المؤيد / ما بين عامى ١٩٠٦ ، ١٩٠٩ مسعر نار الحرب الكلامية فى هذا الباب واضطر خصومه إلى عقد جلسات مناظرات ومحاورات اشترك فيها نفر كبير من أساطين اللغة والأدب المعروفين فى ذلك الحين أمثال حفنى ناصف وعبد العزيز جاويش ومحمد الخضرى وأحمد الاسكندرى وأحمد زكى وحسين والى ، وكان ختـــام تلك المناظرات جلسة عقدت فى مساء ٢٠ حزيران ١٩٠٨ خطب فيها نفر من هؤلاء الأعلام وقد انقسموا قسمين قسم يرى رأى المغربى وقسم يخالفه وانتهى بهم المطاف إلى تحكيم العلامة أحمد فتحى زغلول فألقى كلمة رائعة جاء فيها ( إذا عرض لنا لفظ أعجمى ترجمناه إلى لغتنا وإذا تعذرت ترجمته اشتققنا له اسماً من لغتنا ، وإذا تعذر ذلك استعملنا مكان الأعجمى كلمة عربية مصوغة بإحدى طرق المجاز ، وإن لم يمكن شيء من ذلك نلجأ إلى تعريبه أسوة بالمعربات السائدة فى لغتنا[١] وقد كانت هذه الكلمة انتصاراً لمذهب المغربى ، الذى انصرف منذ ذلك الوقت إلى بحث موضوع الاشتقاق والتعريب والكتابة فيه لتأكيد وجهة نظره طوال فترة بقائه فى مصر ، ولما عاد المغربى إلى الشام أخذ يدعو إلى فكرته ويكتب فيها فلما أسس المجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٩١٩ واختير المغربى فى عداد مؤسسه ، وأنشأت الحكومة العربية الفيصلية دائرة أسمتها ( شعبة الترجمة والتأليف ) ١٩١٩ كانت مهمتها تدبر شئون مفردات اللغة فى دواوين الدولة العربية الفتية ، واستبدال الكلمات التركية والأجنبية بكلمات عربية وكان الأساتذة فارس الخورى وعبد القادر المغربى وعبد الرحمن الشهبندر ومحمد كردعلى من القائمين بهذه

---

(١) راجع تفصيل تلك المناظرات فى جريدة المؤيد ١٩٠٨ ومقدمة ( الاشتقاق والتعريب ) ص ٢ .

المهمة العلمية ، ثم بعد فترة ، أى فى يوم (١٩١٩/٦/٨) رأى جلالة الملك فيصل الأول إنشاء مجمع علمى تابع لوزارة المعارف للقيام بهذه الأعمال فأمر بإنشائه وعهد برئاسته إلى الأستاذ محمد كرد على ، وكان المغربى من أبرز أعضائه العاملين وكانت مشكلة الوضع والتعريب من أخطر المشاكل التى استقبلها المجمع ولكن الشيخ المغربى استطاع هو وإخوانه أن يذلل صعوباتها ويضع عدداً كبيراً من المفردات المعربة ، كما كان لهم سعى مشكور ، وأثر واضح فى السعى لإيجاد معجم جديد فى اللغة العربية ينظم المفردات الحديثة . ويجمع اللغة المستعملة وقد تقدم الأستاذ المغربى بتقرير مفصل عن فكرة المعجم إلى زملائه أعضاء المجمع فى جلسة يوم الجمعة ١٢ كانون الأول ( ديسمبر ) ١٩٢٤ ، وإليكم خلاصة ذلك التقرير :

هنـــاك ثلاثة أمور يذكرها الفضلاء فى صيغة المعجم وشرائط تأليفه وهى : —

(ا) حسن اختيار الكلمات ، فنختار له من الكلمات ما نحن فى حاجة إليه ونهمل ما لا حاجة لنا به .

(ب) أن يضاف إليه كلمات جديدة دخيلة ومولدة ومنحوتة ومشتقة مما تستدعيه حاجة الفنون المعربة والاختراعات الحديثة .

(حـ) أن لا يشتغل واضعو المعجم بالعمل منفردين بل عليهم أن يستعينوا برأى علماء اللغة أو مجامعها فى الأقطار العربية توحيداً لكلمات اللغة وطرق استعمالها[1] ، ولكن هدف المغربى لم يتحقق لصعوبة القيام بعبء هذا المعجم فانصرف إلى كتابة المقالات ونشر البحوث اللغوية فى الصحف والمجلات العلمية وبخاصة مجلة المجمع العلمى العربى إلى أن أسس مجمع فؤاد الأول للغة العربية ( مجمع اللغة العربية المصرى ) فى سنة ١٩٣١ وانتخب المغربى عضواً فيه فقال فى كلمته يوم الافتتاح ( يكاد لا يفهم

---

(١) راجع مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ٥/٢٧٧ .

الجمهور من وظائف المجمع إلا أن عليه أن يتتبع الكلمات — الدخيلة والأعجمية المتفشية فى لغته اليومية ، وأن يستبدل ألفاظاً عربية لها ، حتى كان هذا العمل أو هذا الغرض هو كل ما يرتجى من المجمع ، وقد نسوا ما للمجمع من فضل فى توجيه الأغراض الأخرى حقها ، ولا سيما وضع ألوف الكلمات للغة الدراسة أى لغة العلوم والفنون . . ماذا صنع حماة اللغة ، الغير على سلامتها بكلمات : براشوت ، شتوكا ، جستابو كوماندوس . . هما رأيان بدءا يتصاولان منذ زمن الشيخ رفاعة الطهطاوى ، أو نقول منذ عهد الترجمة الأول ، وما زالا فى الصيال حتى أسلما أمرهما أخيراً إلى مجمع فؤاد ونزلا على حكمه . حقاً إن مسألة التعريب أو نقول : إن مسألة التردد فى قبول الكلمات الأعجمية ، وعدم قبولها أخل بنهضتنا اللغوية وأخرها إلى الوراء أكثر من نصف قرن ، ولذا كان التعريب من أعظم الأغراض التى ينبغى أن تعنى بها المجامع اللغوية ، وهو فوق ذلك موضوع معقد خطر ، ولم ننس بعد ما كان من اختلاف الرأى حول وضع اصطلاحات عربية للجيش المصرى مكان اصطلاحاته القديمة ، وكم عالم غيور من رجال نهضتنا الحديثة قضى نحبه وبقلبه شىء أو حسرة من التعريب . فأنتم ترون أن المغربى ظلّ وفياً لفكرته فى وجوب التعريب وقد دافع عن ذلك دفاعاً مجيداً فى كتابه المشار إليه ، وفى بحوثه العديدة التى نشرها فى مجلة مجمع دمشق وفصلها فى بحوثه فى مجلة مجمع القاهرة .

## ٢ — عثرات اللسان فى اللغة :

هو كتيب لطيف يمت بصلة قوية إلى الكتاب السابق ، بحث فيه عن عثرات الكتاب والخطباء فى اللغة وأصل هذا الكتاب محاضرة كان ألقاها المغربى فى ردهة مجمع دمشق بعنوان ( عثرات الأقلام ) فى ١ شباط (فبراير ) ١٩٤٤ ناقش فيهـــا الأغلاط اللغوية التى يظهر خطؤها حين النطق بها . وهى لو كتبتها الأقلام لما كان بين خطإها وصوابها من فرق ، وقد قسم المؤلف

هذه الأغلاط إلى عشرة أصناف ( فالكلمة يكون أولها مفتوحا فى فصيح اللغة فيضمه الناس أو يكسرونه ، أو مكسورا فيضمونه أو يفتحونه ، أو يكون وسطها متحركا فيسكنوه ، أو ساكنا فيحركونه أو مشدداً فيخففونه ، أو مخففا فيشددونه كل ذلك يفصلونه على خلاف الفصيح المعروف لدى أهل اللسان )[1] .

وقد اهتم المغربى بهذه الناحية اهتماما شديدا لجمع أكثر من ثلاثمائة كلمة تعثر بها الأفام وتلفظها لفظا خاطئا . فصنفها تصنيفاً دقيقا ، عمد من ورائه إلى إحياء اللغة الفصيحة وتطهيرها من العامّية المبتذلة واستعمال الكلمات الصحيحة مكانها .

وقد ذكر فى صدر كتابه ملاحظة لطيفة بين فيها أن الكلمات اللغوية قسمان قسم سماه ( الكلمات الأدبية ) وهى التى تستعمل فى الخطابة والكتابة والتأليف وقسم سماه ( الكلمات اليومية ) وهى التى تستعمل فى لغة الحياة العامة فى البيت والشارع ومجالات الأنس والسمر . وإنه قصر بحثه فى كتابه هذا على الكلمات اليومية . ولا بأس أن أورد عليكم طرفا من مباحث ذلك الكتاب لتعرفوا طريقة الشيخ ومقدار حرصه على اللغة العربية وعنايته بحمايتها قال : « يقولون ( حَلَوِيّات ) بمجموعة الأطعمة الحلوة ، يفتحون اللام ويكسرون الواو ويشددون الياء خطأ كأنها جمع حَلوِيّة ولا يوجد فى كلام العرب حلوية وإنما ( حَلْوَيَات ) جمع ( حَلْوَى ) بالألف المقصورة ، فالواجب أن تلفظ بفتح الحاء وسكون اللام وفتح الياء من دون تشديد ، وإذا جعلناها جمعا لحلواء بالألف الممدودة زدنا ألفا بعد الواو فى الجمع فنقول ( حَلوَيات ) والياء مخففة أيضاً إلا أن يدعى مدع بأن ( حلويات ) المشددة الياء نسبة إلى ( حلو ) فيقال فيه ( حُلوىّ ) وجمعه ( حُلوِيات ) فيكون خطأ العامة فيه فتح الحاء واللام وصوابه ضم الحاء وسكون اللام .

---

(١) عثرات اللسان ص ٥ .

وقال ( حمارّة الحرّ صبارّة البرد ) أى شدتهما يشددون ميم (حمّارة) وباء ( صبّارة ) ويخففون راءهما ، وهو خطأ من فعلهم والصواب العكس أى تخفيف الميم والباء وتشديد الراء فيهما ، وقيل بجواز ما قالوا )[1]

هذا نمط من مباحث ( عثرات اللسان ) وللمغربى مباحث ومقالات عديدة نشرها فى مجلات مجامع مصر والشام والعراق كلها تنطق عن تعمقه فى مباحث اللغة ، وتبين حرصه الشديد على حمايتها من عبث العابثين .

وله فى مباحث اللغة دراسات طويلة و آراء صائبة فى القضايا اللغوية لا يتسع المجال للإفاضة فيها فمن ذلك رأيه فى أن كثيرا من الكلمات الرباعية والخماسية يمكن إرجاعه إلى كلمتين ثلاثيتين بسهولة فقد تبين أن تكوّن تلكم الكلمات فى لغة العرب إنما كان بوساطة ما سماه ( الاشتقاق النحتى ) فكلمة ( دحرج ) منحوتة من ( دحره فجرى ) وكلمة ( هرول ) من ( هرب وولى ) و ( خرمش ) من ( خرم وشوه ) وما إلى ذلك من المباحث التى تدل على عمق تفكير وسعة اطلاع ، ولقد عرف فضله فى هذا الباب المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب الشاعر المصرى الفحل فقال فيه من قصيدة يمدحه عام ١٩٠٩ ويعتذر عن عدم تمكنه من توديعه حين مغادرته مصر إلى الشام .

فهل مبلغٌ أشواقَ مصرٍ وأهلِها نسيمٌ يوافى ( المغربى ) فيسمعُا
أقام بهـا حيناً من الدهرِ لم يكن سوى البحر فيّاضاً سوى الليثِ أروَعا
له قلمٌ يعلو به الحقُّ إن جرى وكان به « يحلو » المؤيد مَشرعا
إذا استله فى المعضلات رأيته به الله تبيان الحقائق أودَعا
ثوى بيننا فى سـيرةٍ نبوية نَشُمّ لها روحاً من المسك اسْطعَا

---

(١) انظر « عثرات اللسان » ص ٨٨ — ٨٩ .

### ٣ – الأخلاق والواجبات :

انصرف المغربى بعد تركه نشاطه السياسى الذى كان يزاوله فى العهد العثمانى ، وبخاصة خلال الحرب العالمية الأولى ، إلى التأليف العلمى الهادىء وكان كتاب « الأخلاق والواجبات » أول ثمرات هذه الفترة من حياته ، وهو مؤلف إصلاحى اجتماعى ألفه حينما رأى ( أن المكتبة الإسلامية - على وفرة ما حوته من الكتب والاشعار المؤلفة فى الفنون المختلفة - لم يكن فيها من المؤلفات المترجمة للأخلاق ، الخاصة على الآداب ، المرغبة فى الفضائل . وإذا تساءلنا عن كتب الأخلاق المتداولة بيننا اليوم لم نكد نعد منها سوى (كتاب الأخلاق ) لابن مسكويه ، و ( أدب الدنيا والدين ) للماوردى و ( الجزء الرابع من إحياء الإمام الغزالى ) ... إن الكتب الثلاثة التى ذكرناها هى نفسها ، لايكاد يفهمها أو يستفيد منها إلا أفراد قلائل أيضا ، وكتاب ابن مسكويه احتذى فيه مثال الحكماء والفلاسفة وسلك طرائقهم فى البيان والشرح ومالنا ولما قاله أولئك الحكماء الأقدمون وهذا قرءاننا وحديث نبينا ( ص ) تضمنا من روائع الحكم فى الفضائل والآداب والحث على مكارم الأخلاق مايبذ القائلين ويفى بحاجة المحتاجين ، وكل ما نريد اليوم كتب أخلاقية يستعين بها المسلمون والآباء والمتصدون لإرشاد العامة ولتربية الطلاب والناشئين ، وقد ألف المغربى كتابه هذا فجاء ضخما إذ تعمّد فيه إلى توفية الأمور الأخلاقية والدينية التى عالجها ما تستحقه من العناية ، واسهب ، ورأى وزير معارف الحكومة العربية الفيصلية إذ ذلك الأستاذ الكبير ساطع الحصرى أن ما كتبه الشيخ مطول جدّا فطلب إليه اختصاره وأن يقتصر فيه عن المنقول والمأثور - على ماورد فى الكتاب السماوى والحديث النبوى ، اللهم ما جاء عرضا من أقوال الحكماء مما يلتحم معناه مع معنى الآيات والأحاديث ففعل ذلك كله وافرغ الكتاب فى أسلوب سهل المأخذ قريب المتناول .

والكتاب مقسم إلى ( مقدمة ) بحث فيها القرآن والحديث بحثا جد مفيد

يلخص فيه كافة علوم القرآن والحديث ومباحثها مما لا يدع مزيداً لمستزيد. ثم ذكر (تمهيدا) بحث فيه عن مكانة الأخلاق وعن الأخلاق والإيمان وعن الأخلاق والعبادات وعن الدنيا والآخرة والخير والواجب ثم شرع فى ذكر مباحث الواجبات بعد أن قسمها إلى أربعة أقسام :

١ - الواجبات الشخصية وبحث فيها عن وجوب اهتمام المرء بالصحة والتداوى والنظافة والطهارة ، والعلم والعقل ، والصبر والشجاعة ، والصدق والكذب ، والعمل والسعى والزراعة والصناعة ، والكسب والتجارة وما إلى ذلك .

٢ - الواجبات العائلية وبحث فيها عما ورد فى الدين عن الأهل والعيال والنكاح والطلاق وأحكام النساء والأيتام وما إلى ذلك .

٣ - الواجبات الاجتماعية وبحث عن مزايا الجماعة والتعاون والرحمة والصدقة والأمانة والعدل وما إلى ذلك من مباحث الأخلاق الجماعية .

٤ - الواجبات المدنية وفيها بحث لطيف عن واجبات الفرد نحو الوطن والحكومة ووجوب الدفاع عن الوطن ، والنصح للحكام والطاعة لهم وما إلى ذلك .

ثم ختم الكتاب بمختارات من القرآن والحديث يستظهرها الفرد ويستعين بها على تدارس أمور الأخلاق والواجبات الدينية .

وقد لقى الكتاب رواجا عظيما فى كافة أرجاء العالم الإسلامى بسهولة عبارته ، وصفاء سريرته ونقاء سيرة مؤلفه وصدقه فى دعوته .

ومما يلحق بهذا الباب « كتاب البينات » الذى نشر منه جزءين اختار فيهما بعض مقالاته الاجتماعية الإصلاحية عن ( الإصلاح الإسلامى والباعث عليه وفهرس أركانه ) وعن (البطالة والعمل) و (العائلة) و ( الحرية العلمية فى الإسلام ) و ( الزواج والحب ) و ( الطلاق فى الإسلام ) و(التربية النفسية والمقارنة بين كتبها الإبتدائية ) . و (الإنفاق فى الكماليات)

و ( الأخلاق والعقائد والأولياء والمراقد ) وما إلى هذه الأمور من مباحث الإصلاح الاجتماعى — الدينى الذى نذر المغربى نفسه للقيام بإعبائه والمغربى فى حملته الإصلاحية سائر على خطى شيخه الأفغانى ومحمد عبده ، متخذ سنة السلف الصالح من الاعتماد على ما ورد فى معالجة هذه الأمور فى الكتاب السماوى والحديث النبوى والاسترشاد بأقوال الحكماء والفلاسفة المعاصرين من شرقيين وغربيين ، وهو على الرغم من كونه نشأ نشأة دينية تقليدية كان نزاعا إلى التجديد محاولا أن يطلع على كل ما جد فى عصره من أقوال الفلاسفة والمذاهب الحديثة ومناقشتها مناقشة تلائم طبعه وبيئته ، فقد ناقش فى بحث له نشر سنة١٩٠٨ (١٣٢٥هـ) موضوع الفقر والعدالة الاجتماعية وخطر « الاشتراكية » فقال إن ( الزكاة الشرعية هى دواء الاشتراكية ، وبما أن أمور الزكاة غير منتظمة وهذا شيء نشأ عنه انتشار الاشتراكية » وقال « أيضا إن الأسباب الحائلة بين المسلمين وبين اطراد إخراج الزكاة وجنى ثمرتها الاجتماعية هى أمور ثلاثة .

أولها : ترك إخراجها إلى تقوى المرء بحيث لا يكون له محاسب سوى نفسه ولما انحطت الأمة فى علمها ومجموع أخلاقها وشئونها الاجتماعية والسياسية — تبع ذلك إهمال الفريضة فلم يعد يخرجها إلا القليل ممن تشيع بروح الدين .

وثانيها : أن هذا القليل يوزع مبالغ طفيفة - حسب رأى الفقهاء - فلا يكون لها أثر فى تحسين حالة الفقراء .

وثالثها : أن مصارف الزكاة - أى مستحقيها - اختلط حابلهم بنابلهم فلم يعد يعرف المستحق من غيره وربما كان فى هذا ما يثبط عزائم المزكين .

وقد اقترح المغربى حلا لهذه المشاكل أن تؤلف فى كل بلدة إسلامية لجنة من أهل الدين والعفة والأمانة بحيث تتوفر على الوساطة بين الأغنياء وتعد لذلك الأمر عدته من اتخاذ الاعوان والنقباء للبحث عن المستحقين وما مبلغ

حاجة الواحد منهم ، وأيهم الأكثر استحقاقا وأشد عوزا ، ثم تتناول هذه اللجنة أموال الزكاة من الأغنياء وتصرفها عنهم بالوكالة إلى الفقراء بتعليم أولادهم العلوم والصنائع وإعطائهم رءوس أموال يشتغلون بها وبناء ملاجىء للزمنى ومستشفيات للمرضى الخ . .

هذا العلاج الإسلامى لفشو « الاشتراكية » فى رأى المغربى لأن الغرض منها ( التوفيق من الطبقة العالية والطبقات السفلى من الفقراء والعمال ، وأن يكون لهؤلاء نصيب من الحظوظ التى ساقتها التقادير إلى أولئك ) وإذا كان الأمر كذلك ( فروح الاشتراكية تكون موائمة لروح الدين ويكون للاشتراكية من الزكاة الإسلامية دواء ناجع لدائها . أما إذا كان الغرض من الاشتراكية معنى غير الذى قلنا فلنبحث لها عن دواء غير الذى ذكرناه ولا تظننا نجده ، بل لا نظنه موجودا )(١)

هذا نمط من طريقة المغربى فى معالجة بعض المشاكل الاجتماعية الصعبة ولا شك عندنا فى أن المعلومات التى كان يعرفها عن الاشتراكية كانت معلومات أولية لأن الناس فى ذلك الحين كانوا لا يعرفون عنها إلا معلومات ساذجة ، وما كانت الخزانة العربية قد ترجمت بعدُ المهمَّ من مباحث العلماء عن الاشتراكية إذ ليس ثمة من صلة بين موضوع فريضة الزكاة التى شرعها الإسلام وبين الاشتراكية كبحث اقتصادى فإن ما جاء به الإسلام ليس إلا دعوة دينية إصلاحية . أما الاشتراكية فمذهب اجتماعى وسياسى واقتصادى يقول الدكتور عبد الوهاب حومد « إن الدعوات الدينية ليست دعوات اشتراكية اقتصادية وإنما هى مذاهب إصلاحية هالها هذا التفاوت بين طبقات المجتمع وهى مكونة من أفراد أمهم حواء وأبوهم آدم فعملت على تحسين أوضاع المحرومين . . وهذا الطابع الإصلاحى واضح جدا فى الدعوة الإسلامية حتى أنها جعلت الزكاة ركنا من أركان الدين

---

١) البينات ٢/١٩٥ — ٢٠٠ .

وحفل القرآن بكثير من الآيات التى تحض على التصديق . . أما الاشتراكية فهى مسألة اقتصادية خالصة يترتب عليها نتائج اقتصادية قد تنعكس عكس الأخلاق ولكنه انعكاس غير مباشر وعلى هذا يكون ما قاله شوقى .

« الاشتراكيّون أنتَ إمامُهم »

قول شاعر يرصف الكلام ويجيد قوله ، لكنه ليس من العلم فى شىء[1] » .

ومهما يكن من أمر فإن نظرة المغربى إلى كل المذاهب الغربية كانت نظرة المسلم المحافظ الذى يرى فى كتاب الله وسنة رسوله وأقوال السلف جماع كل شىء ومنها علاج كل قضية اجتماعية وسياسية ، على هذا نشأ وعليه رحل فلا مساغ لمجادلته فى آرائه ومعتقداته .

٤ – كتابا ( تفسير جزء تبارك ) و ( على هامش التفسير ) :

ألف المغربى كتابه فى تفسير جزء « تبارك » فى سنة ١٩٢٠ تتميما لما كان بدأ به أستاذه الإمام محمد عبده من تفسير جزء « عم » لأن هذين الجزءين ( من أكثر الأجزاء شيوعاً بين طلاب المدارس وتداولا بين عامة المسلمين وأيدى صغارهم وآياتهما أشد علوقاً بالنفس وترديداً فى الأفواه عن سائر آيات الكتاب ) . وتفسير جزء « عم » للأستاذ الإمام من خير الكتب التى لقيت أحسن القبول لإتقان تأليفه وسمو أسلوبه وتقريبه معانى الذكر الحكيم إلى أذهان العامة والمتعلمين ، وقد راج رواجاً عظيما وطبع عدة مرات فأراد المغربى أن يحذو حذو أستاذه ويعمل على سد الثغرة التى تركها أستاذه الإمام فقد بلغه أنه كان فكر فى تفسير جزء ( تبارك ) وأنه ( كان هيأ صحائف بيضاً رقم فى رؤوسها آيات ذلك الجزء

---

(١) « الاشتراكية الدستورية » للدكتور عبد الوهاب حومد ص ١٠ — ١٣ .

وتركها غفلا من الكتابة على أمل أن يصطحبها معه فى بعض أسفاره ويملأها تفسيراً وتعليقاً كما كان أمره فى تفسير جزء عم الذى ألفه فى غضون سفره إلى البلاد المغربية لكنه اخترمته منيته قبل أن تتحقق أمنيته ) ألف المغربى تفسير جزء تبارك متوخياً طريقة أستاذه الجليل (فيما علقه على جزء « عم » من جهتى الصحة فى التعبير ، والاقتصار على المفيد من القول[1] ) إلا أنه اضطر فيما يظهر إلى التوسع قليلا والإكثار من الاستشهاد والتنظير ولا سيما فى المباحث اللغوية بأكثر مما فصله الأستاذ الإمام مراعياً فى ذلك حالة قراء جزء ( تبارك ) ومقدراً أن قارئيه أكبر سناً وأتم استعداداً وأشد اهتماماً . والكتاب فى ثلاثمائة صحيفة بالقطع الكبير طبعت منه وزارة المعارف المصرية للمرة الأولى فى سنة ١٣٦٨ ﻫ ( ١٩٤٩ م ) خمسة عشر ألف نسخة ، وأعيد طبعه فى هذه الآونة طبعة شعبية .

وقد سلك المغربى فيه طريقة الإمام فى التعليق على الآيات الكريمة ولكنه وسع فى شرح المفردات اللغوية وأكثر من الشواهد الأدبية ، وقد صدره ببحث لطيف ذكر فيه أن جميع سور هذا الجزء المبارك قد أنزلت بمكة أى قبل الهجرة ، ومن ثم كان الخطاب الإلهى فيها موجهاً إلى المشركين وهو فى الأغلب يدور حول إثبات وجود الله والاستدلال عليه بما خلق من الكائنات ، ثم إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه صادق فى دعوى الرسالة والوحى ، ثم تقريع المكذبين وتخويفهم ما بين أيديهم من هول الحشر والحساب وأن هذا الحشر ممكن وسيقع بالفعل فيلقى كل فريق من الجاحدين والمؤمنين جزاءه اللائق به ، فى داره المعدة له ، ووصف هاتين الدارين وصفاً بديعاً فى أسلوبه عجيباً فى نسقه وتركيبه ، ويتخلل الآيات تسلية النبى ( صلى الله عليه وسلم ) وتقوية قلبه الشريف وحثه على الصبر والتجلد والتأسى بإخوانه الأنبياء الذين تقدموه ولقوا من أممهم مثل ما لقى

---

(١) مقدمة تفسير ( جزء تبارك ) المغربى .

أو أشد[1] . ويلاحظ أن المغربى قد أسهب فى تفسير آيات نعيم المؤمنين فى دار الآخرة فقد فسرها تفسيراً قال عنه ( كانت تعرض لى وأنا أباشر التفسير ، آيات النعيم ووصف ملذات الجنة والأشياء التى يستمتع بها فى بحابحها فكنت أفسرها تفسيراً ينفى الشبهة ويزيح الشكوك ويلتحم مع العقل السليم من دون أن أخرج عن قواعد اللغة والمعهود فى أساليب العرب ومذاهبهم الكلامية ، ومن دون أن أتخطى قواعد الإسلام وسلامة أصوله التى تبنى عليها علاقة العقيدة ، غير أنى ( من حيث لا أشعر ) كنت أسهب فى تفسير آيات الملذات إسهابا رأيتنى فيه خرجت عن الاختصار الذى التزمته فى تفسير آيات جزء تبارك ) والحق أن المغربى قد سلك فى هذا الطريق مسلكا ارتآه ، ولكن جماعة من العلماء خالفوه فيه قديماً وحديثاً ذاهبين إلى أن ملذات الآخرة كملذات الدنيا التى يتمتع بها الجسم وتلذها العين واليد لا كما يقول هو من أنها ملذات روحية روحانية .

وقد انقسم أولئك العلماء إلى فريقين ( فريق أول هم جمهور العلماء المتقدمين ومن تبعهم من عامة المسلمين إلى اليوم ممن قالوا بأن ما ذكره الله فى القرآن عن الجنة وأسباب نعيمها داخل كله تحت القدرة الإلهية والإمكان العقلى وقد خلق نظيره فى دنيانا هذه ومن خلق هذا قادر بالضرورة على خلق ذاك فالواجب تصديقه والإيمان به من دون تأويل أو تعليل حتى قال أبو قلابة المفسر المحدث البغدادى ( — ٢٧٩ ) فى تفسير قوله تعالى : ( وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ) إن أهل الجنة يؤتون بالطعام والشراب ممزوجاً بالكافور والزنجبيل فإذا أكلوا وشربوا ما شاءوا دعوا بالشراب الطهور المذكور فيشربونه فتطهر بذلك بطونهم ويفيض عرق من جلودهم كريح المسك فتضمر بذلك بطونهم[2] وفريق ثان هم الصوفية الذين اشتهروا

---

(١) تفسير جزء تبارك ص ١ .

(٢) تفسير الطبرى جزء ٢٩/ص ١٣٧ وتفسير النيسابورى بهامشه ص ١٢٢ .

بعشق الحضرة الإلهية والاستغراق فى تقديس الذات الأحدية فكلام هؤلاء يشعر بأن للأكل والشرب ولحم الطير والفاكهة والخمر واللبن والأكواب والحور والولدان والأساور والستور والوسائد ... معانى أخر وراءها ما يستفاد منها لغة وأن هذه المعانى هى المقصودة فى الخطاب الإلهى .

والمغربى لا يرى رأى الفريقين وإنما يقول إن ثمة فريقاً ثالثاً لا يقيم وزناً لما استند إليه الفريق الثانى من الكاشفات ومعرفة الأسرار لا لأنهم ينكرون ذلك بل لأنهم يقولون أن الله أنزل علينا القرآن بلسان عربى مبين وكلفنا أن نتدبر ونتفهم معانيه ونعمل بها وبديهى أن الواسطة فى فهم هذه المعانى واستخراجها من إطواء الخطاب الإلهى إنما هى اللغة العربية وطرق بلاغتها ومختلف أساليب التخاطب بها . . وأن تفسير آيات القرآن بواسطة « الذوق والمكاشفة » يروى الدعاوى الفاسدة ، والمزاجم الفاسدة وينقلنا إلى عالم من الوهم والخيال لا منتهى لحدوده فلم يبق لنا حبل نتمسك به فى الوصول إلى فهم القرآن سوى اللغة ومذاهب العرب فى ملاحن كلامهم(١) .

هذا هو رأى المغربى فى فهم نصوص القرآن وقد طبقه فى تفسير كل ما ورد فى القرآن من نعيم الجنة فذكر فى ذلك بحثاً طويلا سماه ( رسالة الحجج الظاهرة فى ما هى ملذات الآخرة ) . أسهب فيها عن هذا الموضوع وأعاد وبدأ وذهب إلى أن الوحى الإلهى أراد أن يصف للمخاطبين آيات الملذات فى الجنة بما ألفوه وكلفوا به من ملذاتهم الدنيوية على نحو ما يشعرون به مفرغاً ذلك الوصف فى التراكيب والأساليب التى اعتادوها فى التخاطب بينهم ودرجوا عليها فى ملاحن كلامهم وذلك لعجز فطرهم وضعف استعدادهم عن فهم تلك الملذات الأخروية وتعلقها بالكنه

---

(١) على هامش التفسير ص ١٤ — ١٥ .

والحقيقة فضرب لها مثلا ملذات الدنيا ووسائل اجتلابها وأسباب الشعور بها من مثل الحور واللحم والخمر واللبن والفاكهة والأسرة والحرير والذهب والفضة واللؤلؤ ، ولا يخفى أن تمتع النفس بهذه المذكورات وتقليب النظر فيها ، وممارسة الحواس لها من أكبر ملذات الدنيا وأسباب الترف فيها عند البشر عامة وعند العرب المخاطبين بالوحى لذلك العهد خاصة . فالمنعم فى الجنة يشعر بلذة عجيبة ثم يحس بمسرة غيرها شديدة التأثير فى نفسه ثم بلذة ثالثة وبأخرى غيرها رابعة وهكذا فتتألف من مجموع هذه الملذات والمسرات وشعور النفس بها حالة صورها الوحى الإلهى للبشر بحالتهم التى يشعرون بها مذ يتناولون ملذوذاتهم الدنيوية المتعددة الأنواع والمختلفة الأشكال ويمارسون أسبابها ووسائلها كل ذلك تشويقاً لهم وحفزاً لهممهم إلى الإيمان والعمل الصالح وطاعة الله . ولا يلزم من هذا أن تكون ملذات الجنة روحانية أو معنوية لا وجود لها فى الخارج ولا يشعر بها الجسم لأنك إذا ضربت جود حاتم المعهود لك مثلا لجود زيد لا يلزم منه أن يكون جود زيد أمراً معنوياً لا وجود له فى الخارج ، وإذا ضرب الله لنا لحم الطير مثلا للذة من ملذات الجنة لا يلزم منه أن تكون ملذة الجنة روحانية لا يحس بها الجسد ويوشك أن يكون الشرح قد نقل الكلمات الدالة على المسرات من معناها اللغوى الدنيوى إلى معنى اصطلاحى جديد أخروى فنقل كلمات الخمر واللبن واللحم والطير والحور والولدان من معانيها المعهودة فى الدنيا إلى معان أخرى وهى وسائل اللذات والمسرات التى تكون فى الجنة فهذه الكلمات إذن لها معان لغوية أخرى ومعان أخرى عرفية أو شرعية ، وهذه الكلمات الصوم والصلاة والزكاة وغيرها مما له معان لغوية ومعان شرعية . ونحن نقول بأن لتلك الألفاظ ، كالخمر والحور والولدان ، مدلولات علوية تلائم الحياة الأخروية التى لا نستطيع اكتناهها فى حياتنا الدنيا وإنما فصل الشرع ذلك تفادياً من وضع كلمات جديدة لهذه المسرات الأخروية ليست من لغة العرب المخاطبين ولا يفهمونها ، والحكمة

تقضى أن لا يخاطبهم إلا بما يفهمون لتنهض الحجة عليهم . ولما كانت اللذات المادية كما نفهمها فى هذه الحياة الدنيا غير ممكنة فى تلك الحياة الأخرى وجب أن نحمل آيات النعيم ووصف اللذائذ الأخرى على المعنى الكنائى والأسلوب التمثيلى – كما وقع فى قول الخنساء وأقوال كثيرين غيرها من فحول فصحاء العرب وبلغائهم – ولا يضر تلك الآيات ، ولا يحط ذلك من قدر بلاغتها وقيمة إعجازها ، بل على العكس يزيدها رونقاً وبلاغة وحسناً ويرفعها درجات فى معارج الإبداع والإعجاز .

والمغربى فى تفسير جزء « تبارك » يسلك طريقة المفسرين الأول من رجال مدرسة أبى عمرو بن العلاء وأبى عبيدة الذين يمزجون التفسير بالآداب ويتفهمون القرآن بأساليب العرب ، ولعل كتاب المجاز الذى ألفه أبو عبيدة وملأه بالشواهد الشعرية وبحث فيه عن مجازات القرآن وكناياته دليل على ما قلناه .

وتفسير المغربى كتفسير محمد رشيد رضا وتفسير شيخهما محمد عبده وهى من التفاسير الحديثة التى سار فيها أصحابها على مذهب السلف ، ولعل رائد هذه الطريقة فى العصور المتأخرة هو الإمام أبو الثناء الألوسى فى العراق والمصلح الشيخ جمال الدين القاسمى فى الشام .

[ أما بعد ] فهذا بحث موجز عن المغربى المؤلف عمدنا فيه إلى دراسة بعض آثاره المطبوعة لئلا يطول البحث بدراسة آثاره كلها ولابد لنا قبل ختام هذا الحديث من الوقوف أمام كتاب من أواخر كتبه التى نشرها هو شرح تائية عامر بن عامر البصرى الصوفى الحكيم فقد نشر التائية مع شرح موجز لأبياتها كشف فيه عن رموز الصوفية فى أشعارهم وأفكارهم. ومن هذه الرسالة تتكشف لنا ناحية من نواحى الشيخ ما كنا لنعرفها عنه لولا هذه الرسالة وهى معرفته الواسعة بالتصوف ومذاهبه ، فقد قدم لنا الشيخ فيها (صورة من صور التفكير العربى جمع مصورها البارع فى نقشها بين لونين : لون أدبى مشرق باسم ولون صوفى عابس قاتم) .

أما آثاره المخطوطة فنجمل الحديث عنها بما يلى :

٥ – « كتاب أحسن القصص أو التاريخ النبوى المقدس »

فى سيرة نبينا محمد ﷺ وتاريخ نشأته إلى حين وفاته

هو كتاب فى السيرة أتى فيه المؤلف على تفاصيل حياة نبينا محمد ﷺ مبوباً ومرتباً ترتيباً عصريا وقد ضمنه كثيراً من الأبحاث والفوائد المتعلقة بأخلاق النبى الكريم وحقائق الشريعة التى أتى فيها بما يروق لدى الفضلاء المعاصرين ، وصدره بمقدمة قال فيها « إن الغرض من هذا الكتاب فائدتان الأولى ، تقوية إيماننا وازدياد ثقتنا بصحة ديننا ، والثانية هى التأمل فى أخلاق النبى ور وائع آدابه وتدبر أعمال الصحابة وجليل مآثرهم والمقارنة بين جميع ذلك وبين ما نحن عليه اليوم من الأخلاق والآداب وأن نتخذ من سيرته ( ﷺ ) وآدابه وآداب صحابته ما نقتدى به و نعمل على شاكلته .

وقد أفرد فى مستهله بحثاً من المؤلفين فى سيرة النبى ﷺ ، ثم وصفا لحالة العالم قبيل البعثة ، وبحثا عن حال جزيرة العرب قبل الإسلام وعن قريش وطفولة النبى وشبابه وزواجه ، ثم تكلم عن الوحى وعن صبر النبى على أذى المشركين وعن صحابته وغزواته وما تخلل ذلك من الحوادث التى تشيد بصدق هذه الدعوة المحمدية ، كل ذلك بأسلوب بالغ الروعة ، غير أن المؤلف بعد أن تكلم على سرية زيد بن حارثة وقف عند غزوة أحـــد ولم يكمل الباب .

٦ – المعجم اللغوى :

هو معجم لطيف جمع فيه ما يحتاجه المؤلفون والكتاب فى الفنون المختلفة العصرية والإدارية من الألفاظ والتراكيب التى يجدر بهم استعمالها فى كتاباتهم وتآليفهم فتحيا بها اللغة العربية وتجارى غيرها من اللغات الحية فى حلبة التأليف الفنى الصحيح ، وقد نهج فى هذا المعجم نهجاً جديداً ، وهو أنه قسم كلمات اللغة إلى ألفاظ زراعية ، وصناعية وإدارية ، وعسكرية ،

واقتصادية ، وحقوقية ، وتجارية ، وفنية ، وكلمات علمية عامة أدرجها تحت عنوان ( المعارف ) ثم ذكر كلمات مختلفة لمعان مختلفة ، وجعل كل نوع من هذه الألفاظ فى باب خاص ، كما أورد معناها والمراد منها بأسلوب سهل واضح إلا أن هذا التأليف لم يتم ووقف المؤلف فيه عند حرف الذال .

٧ — أقرب الطرائق إلى كنز الدقائق :

هو كتاب كان وضعه وهو فى طور التحصيل شرح فيه ( متن الكنز ) فى الفقه الحنفى شرحاً قرب مسائله إلى أذهان المتعلمين ومما قاله فى مقدمته « إنه قد اقتصر على المسائل الفقهية التى يكثر حدوثها وتحاشى الألفاظ التى يقبح سمعها بقدر الإمكان ، ولم يتعرض للخلافات بل ذكر القول المعتمد وقد توخى الإيجاز حين يرى الإيجاز ألزم ، والأسهاب حين يراه أنفع . وهو شرح سهل العبارة بسط فيه المسائل الفقهية تبسيطا علمياً قريباً من أذهان أهل العلم والمراجعين .

٨ — رسالة العقائد الإسلامية :

هى رسالة فى العقائد الإسلامية أفرغها المغربى بأسلوب يقرّبها من أذهان الطلاب ، وقد جمع فيها ما ينبغى معرفته فى هذا الموضوع ، كما ضرب أمثلة وأتى باستدلالات معقولة تساعد على تفهم مسائل هذا العلم لا سيما ما يتعلق بوجود الله تعالى والنبوات والمعجزات .

٩ — كتاب شرح مقصورة ابن دريد :

هو كتاب كبير شرح فيه أبيات المقصورة الدريدية بأسلوب طلى رائع فى الابانة ، وحلل ألفاظها تحليلا لغوياً يغنى المتعلم والمتأدب عن الرجوع إلى أستاذ يساعده على فهمها ، وصدّرها بمقدمة افاض فيها فى ضرورة العناية باللغة العربية لأمم ( الجامعة الدينية والجامعة الوطنية ) وشرح المزايا التى تتحلى بها المقصورة الدريدية وما جمعته من ضروب المديح والفخر

والحماسة والغزل والتاريخ وشكوى الزمان ووصف السحاب والخيل والإبل والحكم الرائعة والأمثال البديعة والمواعظ البليغة ثم عقد فصلا أوجز فيه سيرة صاحب المقصورة أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى .

١٠ — مجموعة طائفة من الأشعار فى وصف الصحارى والقفار :

جمع المؤلف فى هذا الكتيب قطعا شعرية لبعض الشعراء فى العصر الجـــاهلى ، ثم لبعض الشعراء الإسلاميين المتقدمين ولبعض الشعراء الإسلاميين المتأخرين فى وصف الصحارى وقد علق على هذه الأشعار بشروح لطيفة توضح معناها الذى أراده الشاعر ، وصدر هذه المجموعة بمقدمة نقل فيها ما قاله المسعودى فى مروج الذهب عن السبب الذى جعل العرب يفضلون سكنى البوادى على سكنى المدن والأمصار .

١١ — تاريخ آداب اللغة العربية :

هو كتاب ضخم صدره بمقدمات عن الآداب التى يجب أن يروض المشتغل بالآداب العربية نفسه بها ، وعن معنى التاريخ وفن تاريخ الآداب والتأليف فيه ، وعن معنى الأدب والآداب عند الإفرنج والعرب ، ثم انتقل إلى الكلام عن عرب الجزيرة ولغاتهم وطبائعهم وعلمهم ثم بسط مسائل هذا العلم مبتدئا بتاريخ الآداب العربية فى عصر الجاهلية الأولى ، ثم عصر الجاهلية الثانية الذى ينتهى بظهور الإسلام ، ثم العصور الإسلامية وقد أفاض فى كل هذه المواضيع وما يتعلق بها وأتى على نموذجات من مطالب اللغة وعلى أبحاث لغوية تتعلق بتاريخ الآداب العربية ثم ذكر المؤلفين فى اللغة ، ثم بحث فى الألفاظ التى عاشت ثم ماتت والمعرّب والمولّد والأمثال والشعر والشعراء وطبقاتهم والخطباء والأنساب وأسواق العرب إلى آخر ما يحتاج إليه المتأدبون فى هذا العلم .

ويلحق بهذا الكتاب جزء عنوانه .

## ( الآداب العربية )

استهليه الشيخ بمقدمة فى تحديد وظيفة أستاذ الآداب العربية ثم انتقى مختارات من أبلغ الشعر والنثر فى العصور المختلفة مع شرح لغريب ألفاظها والمعنى الذى أراده قائلها بعد تعريف موجز بهذا القائل إن كان معروفاً .

١٢ — كتاب « فنون البلاغة » :

هو كتاب فى فنون البلاغة الثلاثة مصدر بآمال شيقة فى تاريخ البلاغة ثم فى التعريف بعلومها الثلاثة وتحديد كل من هذه العلوم بإيجاز ثم تلى ذلك مقدمة فى ماهية الفصاحة وماهية البلاغة ثم ينتقل إلى مباحث علم المعانى ومن المؤسف أن هذا الكتاب غير كامل .

١٣ — كتيب فى التعليم بالمراسلة :

هى دروس فى رسائل كان يبعث بها المغربى يوم كان فى القدس عام ١٩١٥ م إلى ولديه مصطفى ونعيمة فى طرابلس تضمنّ نصوصاً أدبية وأخلاقية بليغة منتقاة من أمهات كتب الأدب العربى ، « وشرحها شرحا وافيا ، وعلق عليها وفسر ما فيها من غريب الألفاظ تفسيرا على غاية فى الوضوح وهى خمس وعشرون رسالة متنوعة المواضيع .

١٤ — النخَب

أو نوادر العلوم وفرائد الآداب

هى مختارات قطع أدبية متفرقة فى الأدب والتاريخ واللغة ، حوت البليغ من النظم والنثر ويظهر أن الأستاذ كان جمعها وشرحها وحلل ألفاظها وهو يريد أن يطبعها فى كتاب أدبى على نمط الكامل للمبرد .

* * *

هذا وقد ترك الأستاذ كراريس كثيرة وتساويد فى علوم الدين واللغة والأدب منها ( كتاب فى أصول الفقه ) على طريقة السؤال والجواب

و ( وكتاب فى النحو ) ورسالة عنوانها ( اثبات الحسّ اللغوى ) ، كما ترك مقالات وأبحاثاً فى مختلف المواضيع معدة للنشر فى الصحف والمجلات . وله حواش وهوامش وتعاليق كثيرة على بعض الكتب مثل المزهر للسيوطى ، وحماسة أبى تمام وغيرهما .

أما محاضراته التى تنيف على المائة فى الإصلاح الدينى والاجتماعى واللغة وآدابها والتاريخ فقد كان ألقاها فى مدن مختلفة فى سوريا ولبنان ومصر وأكثرها ألقى فى ردهة المجتمع العلمى بدمشق ومنها ما ألقى على السيدات ومعظمها لم ينشر بعد ، وله تأليف خاص بأسرته ( آل المغربى ) فى سورية ومصر وتونس تكلم فيه عن منشئها وعن العلماء الذين ظهروا فيها ، كما كتب شيئا عن نشأته وعن شيوخه وتاريخ والده وأجداده والأعمال العامية التى مارسها ، واستطراد بالمناسبة إلى ذكر وقائع من تاريخ طرابلس وحالتها الاجتماعية فى الماضى والحاضر .

هذا هو الإمام المغربى فى نواحيه العلمية والأدبية والإصلاحية وهذه هى صفحة مشرقة من صفحات تاريخها الحديث خطها المغربى فى سفر الحضارة العربية الخالدة .

فعليه من الرحمة والرضوان بقدر ما خدم أمته ولغته ودينه .

أول مقال كتبه الشيخ المغربي نقلا عن جريد المقطم
في يوم الثلاثاء ٢٧ ذى القعدة ١٣٢٣ هـ الموافق ١٩٠٥ م وعنوانه :

## التمثيل العربي

إذا عدت الصحافة والخطابة من عوامل تربية الأمم ووسائل تهذيبها وإرشادها إلى طرق الآداب والفضائل كان التمثيل ولا ريب من أقوى تلك العوامل وأقربها تأثيرا وأنجعها علاجا .

يعمد التمثيل إلى حادثة مشهورة أو رواية مأثورة فيعرضها على الانظار ويقلد رجالها وكل من له مشاركة فى حوادثها متحريا محاكاتهم فى أزيائهم وهيئاتهم وعاداتهم وسائر ملابساتهم . فما التمثيل إذن إلا تقليد ومحاكاة والتقليد والمحاكاة غريزة من غرائز الانسان نشأت معه مذ كان على بساط بساطته الاولى . أنظر إلى الطفل فإنه لا تمسه نفحة من العقل حتى يأخذ فى تقليد من حوله ومحاكاتهم فى أقوالهم وأعمالهم فلا غرو ان كانت النفوس بالتمثيل أعلق وإليه أحن وفيه أرغب .

غاية الحكماء ومربى الأمم والشعوب اصلاح النفوس وتقويم أود الاخلاق والاحتيال على سوق الناس إلى سعادتهم وإيصالهم إلى مايريدونه فيهم من الحياة الاجتماعية بأية وسيلة كانت وعلى أية صورة تسنت . وما تحرى البلاغة فى الكلام وتوخى الأساليب الشعرية فيه وضرب الأمثال وتدوين الوقائع التاريخية وتوقيع الألحان ونحت التماثيل ونقش الصور وكل ما يسمونه فنونا جميلة إلا طرائق سلكها الحكماء إلى تهذيب شعوبهم وذرائع للتأثير عليهم والتلاعب بعواطفهم وأميالهم وتوجيهها إلى شطر الخير والفضيلة وصرفها عن ناحية الشر والرذيلة .

هذه العناية بتربية الشعوب ظهرت على أشدها فى أمم أوربا ولذلك

نمت تلك الفنون فى ربوعهم — واستوت على سوقها لهذا العهد فيما بينهم .

أما التمثيل فهو جماع تلك الفنون وعقد فرائدها وقيد أوابدها . يتناول الكاتب الحادثة التاريخية فيضربها مثلا يتجلى فيه جمال الفضيلة بابهى مظاهرها وقبح الرذيلة بابشع صورها ثم يكسو ذلك من جلابيب البلاغة والشعر والتلحين ما شاء وشاء تمكنه من نواحى تلك الفنون ومهارته فيها .

فلا عجب إذا اهتم كبار كتبة الافرنج بهذا الفن وألفوا فيه التآليف المتعددة فى الأساليب المتنوعة إذ وجدوا فيه ضالتهم المنشودة من قيادة الشعب وسوقه من حيث يشعر أو لا يشعر إلى تربية ملكاته وتثقيف طباعه .

نشأة هذا الفن فى بلادنا والأطوار التى مر عليها منذ أربعين سنة إلى الآن أصبحت معروفة مشهورة . وأشهر منها منزلة الممثل البارع الشيخ سلامة حجازى من ذلك الفن وعنايته به وإبداعه فيه . لانقول إن الفن قد بلغ أشده واستوى على عرش كماله وإنما نقول إنه بمهارة المومإ إليه واستعداده الطبيعى لهذا الفن وبذل وسعه فى تحسينه وإتقان أساليبه قد كاد يترعرع ويتجاوز طور الطفولية . ولايخفى أن أركان هذا الفن التى ينهض بنيانه عليها ثلاثة : مؤلف الرواية أو مترجمها ثم الممثل ثم النظارة المتفرجون . ولا شبهة فى أننا لم نزل بعد أطفالا فى هذا الفن ، والطفل إذا حاول المشى لأول مرة لابد له من أن — يمسك بيدى أمه أو يعتمد على نحو كرسى وإن أبى إلا الاستقلال وترك الاستعانة خاب وفشل، بل أوشك أن يبقى مقعدا إلى ما شاء الله . وهكذا نحن بالنسبة إلى الفن المذكور فإن من آنس من نفسه استعدادا وميلا فطريا إليه ينبغى له أولا أن يستكثر من قراءة الروايات الأفرنجية ويستظهر شيئا من جيدها ثم يأخذ فى ترجمة الحسن المفيد منها وإذا شعر بالقدرة على احتذاء القوم فى وضع الروايات فعل مثلهم والافإنى أنصح له أن يربأ بنفسه عن هذا الموقف ويدرع بالصبر الجميل ولا يستهدف .

ومن أوتى حظا من الفهم فى هذا الفن أدرك لأول وهلة الفرق بين

الروايات المترجمة والاخرى الموضوعة وضعا . فإن حوادث الاولى تسرد على نسق غريب فى أسلوب عجيب فهى كأنها متكافلة متضامنة ، طورا يفسر السابق اللاحق وآونة يوضح المتأخر المتقدم ، ولا يسمع السامع حادثة منها حتى تنشب أنفاسه فى حلقة مبهوتة متشوقا إلى معرفة مايليها ، فإذا سمعه وقع من نفسه موقع الدهشة والاستغراب . وليس كذلك الروايات الأخرى حتى ماينسب منها إلى أشهر المشتغلين فى الفن فانه يضاهى فى وضعه وتنسيق حوادثه قصص ألف ليلة وليلة وأشباهها ، ولذلك ترى الممثل المتقن يضيف إلى هذا النوع من الروايات ألحانا لطيفة ومناظر غريبة ليستر عوارها ويكمل النقص الذى فيها .

ومما يغفل عنه أصحاب الروايات العربية إيضاح مغزى الرواية والشأن المفيد الذى وضعت لأجله من حث على فضيلة أو تنفير عن رذيلة بعبارات جلية وأساليب واضحة مؤثرة بحيث تسترعى أسماع النظارة وتشعر نفوسهم مغازى الرواية ، وإلا كان احتشادهم سدى وضاع وقتهم عبثا . ومن شاهد تمثيل رواية ابن الشعب علم أن مترجمها عنى بكشف أسرارها وتوخى جهده لإيضاح رموزها وكشف الغاية منها ذلك لأن المترجم متشبع من الموضوع الذى ترجم فيه مولع بإلفات الناس إليه وحثهم عليه .

أما النظارة المتفرجون فإن أكثرهم لاه عن تعرف الأسرار بهتك الحجب والاستار ، مشغول عن تفهم الحكم والفضائل بما فوقه ماثل وليس تحته طائـــل ، حقا انه يحسن بنا أن نتشبث بالحشمة والوقار وندع الطيش وخيانة الأبصار ونترك كثرة اللغط والضوضاء سيما عندما يروقنا شيء من أقوال الممثلين وأفعالهم . فإن اللغط يحرمنا فهم تتمة السياق بل ربما شوش على الممثلين أنفسهم فلا يدرون أيمضون فى حديثهم أم يسكتون لبينما يفرغ القوم من جلبتهم وضوضائهم .

رأيت مما ذكرنا أننا لم نزل بعد بين قصور وتقصير عما يلزم كتبتنا

وجمهورنا من ترقية شأن هذا الفن وخدمته عملا وكتابة . ولا يحسن أن نبخس الشيخ سلامة حقه فإن من عرف سعيه المتواصل واجتهاده فى إتقان الفن وتوفير شؤونه واستجماع أدواته ومعداته لم يملك نفسه عن مدحه والثناء عليه . انتقى أفراد جوقته من أجود الممثلين وأمهرهم وأقدرهم على محاكاة الطبيعة وإحكام تمثيل الأطوار والأخلاق والطباع والانفعالات بحيث يجىء تمثيلهم للوقائع نسخة مطبقة على الأصل فى اللفظ والمعنى .

كنت أشاهد التمثيل فأمسك نفسى عن التأثر وأنبهها دائماً إلى أنها إنما ترى أثراً لاعيناً ، ومجازاً لاحقيقة ، ولكن مع هذا فإن مهارة الممثلين كانت تغلبنى فيخدع حسى وأذهل عن نفسى حتى تذهب وراء التأثر والانفعال كل مذهب . أذكر من ذلك ما شاهدته بالأمس فى رواية هملت من تمثيل الشيخ سلامة وميليا حالة المجانين وظهور روح والد هملت بشبح خيال نورانى تطير النفس له شعاعاً ويضطرب قلب المرء من مرآه ولو كان شجاعاً .

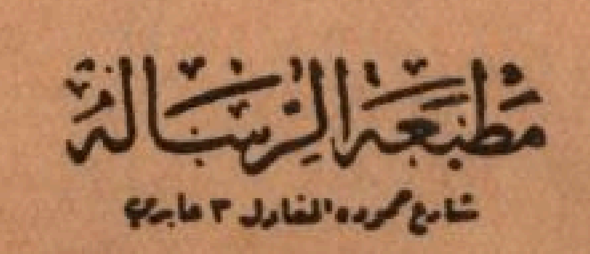
وقد أخذ الشيخ سلامة لإتقان الصناعة أمتعة وأثاثاً وحلياً وألبسة وأدوات وآثاراً وكل ما يحتاج إليه فى تمثيل أحوال الأمم الخالية وأزيائهم وعادتهم ما يستدعى الارتياح إليه والإعجاب بصنيعه ، ومن حضر تمثيل رواية عائدة ورأى تلك الآثار والملابس والحجب والستائر التى يحاكى بها ألبسة المصريين وآثارهم عرف مبلغ عناية الرجل بإتقان هذا الفن الجميل وشدة رغبته فى كسب رضاء الجمهور وارتياحهم .

ولم يأل جهداً فى تنشيط الكتاب والأدباء وتحريضهم على تأليف الروايات النافعة الملائمة لروح العصر والموافقة لأذواق الناس بحيث يكون من ورائها انطباع النفوس على حب الأعمال والأخلاق الفاضلة والنفرة من السفاسف والأفعال السافلة .

أما عنايته بحفظ الآداب فى ( دار تمثيله ) وعدم تساهله بما يخل بالحشمة

ويلوث اسم الصيانة فقد جرى فى ذلك على مبلغ طاقته ، وتوسل إليه بما فى وسعه . رأيته مرة يعنف البربرى ويشدد عليه النكير لكونه سمح لرجل أن يكلم زوجته ( زوجة المتكلم ) التى كانت فى لوج من ألواج النساء . بل بلغت به مروءته إلى أكثر من ذلك . لمح مرة وهو على المرسح شاباً يرمى بلفتاته المتتابعة إلى لوج حريمى فى جانبه فأرسل إليه بكلمة مزج فيها اللوم بالعتاب مزجاً لطيفاً حتى كاد ذلك الشاب يذوب حياء وخجلا . وهكذا أخذ الشيخ سلامة على نفسه أن يجعل فن التمثيل فناً جميلا مفيداً مسلياً مهذباً معاً . فنحث الكتاب الأفاضل وجمهور الشعب أن يعضدوه ويشدوا أزره فيما يبتغيه من ذلك والسلام .

---


مطبعة الرسالة